المبحث الثالث

المعاني العذريَّة وبداوة المشاعر

تناولنا في مبحثٍ سابق صورةً من صور النسيب في الشعر الأندلسي وكيف كانت امتداداً لبداوة النسيب في الشعر القديم ، ونحن الآن بصدد المعاني العذريَّة في هذا الشِّعر ؛ فقد كانت الباديةُ هي مرتعُ الحبّ العفيف الذي نشأ بين خيامها ، ومضاربها ، وحول مساقط الماء فيها ، ظلَّلتْه سماؤها ، وسرت به إبلها وركبانُها ، حتّى أصبح شعراً ملأ الدنيا حبًّا وعذوبةً وصفاءً .

تغنَّى فيه الشُّعراء بمشاعر الحبّ ولوعته ، ووصفوا ما وجدوه من ألمٍ وحرقةٍ وأسى للبعد ، وشكوى من الصَّد والهجر ، وترقُّبٍ للوصل وتمنيِّه ، وخضوع للمحبوبةِ وتلذُّذٍ بهذا الخضوع ، وقد جرت تسميةَ هذا الحبِّ بالعذريّ ، وذلك نسبةً إلى قبيلة عذرة في بادية الحجاز ، التي اشتهرت بالحبّ والجمال ((والجمال في عذرة والعشق كثير)) [1].

ولذا سمعنا عن جميل وبثنية ، وعروة وعفراء ، وقيس وليلى ، وغيرهم ممَّن سُمُّوا بالعشَّاق[2] ، و ((هؤلاء فئةٌ عاشت للحبّ ، وماتت على الحبّ ولم يكن في حياتها أمرٌ ذو بالٍ غير الحبّ)) [3].

لقد نشأ هذا الحبُّ في البادية ، وما كان له أن ينشأ في غيرها ، بعيداً عن الأمور السياسيَّة التي شغلت المدن ، أو اللَّهو والعبث الذي شغل أبناءها بما أُغدق عليهم من أموال[4].

---

(١) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٠٠ .

(٢) انظر : المصدر السَّابق ، ص٣١٠ ، ص٤٩٤ .

(٣) الحبُّ العذري ، نشأته وتطوره ، أحمد عبد الستار الجواري ، المؤسسَّة العربيَّة للدراسات والنشر ، بيروت ، ط . الأولى ، ٢٠٠٦م ، ص٤٨ .

(٤) انظر : المرجع السَّابق ، ص٥٢ .

ولأنَّه نشأ في البادية فقد استمدَّ من صحرائها نقاءه وصفاءه ، ولذا ابتعد هذا الشِّعر عن الماديَّة المحسوسةِ وتسامى عنها ((فالحبُّ العذري صورة مصفَّاة مهذَّبة من صور الحبّ تسمو على لذَّة الحسّ وتتعالى عن شهوّة الجسد)) [1] ، وقد أخذ هذا الحبُّ من الصحراء أيضاً قوَّتها وبأسها فعُرف أصحابه بقوّة العشق والهوى ، ولذا جاز للجاحظ أن يسمّي هذا العشق ((عشق الأعراب))[2]، لقد توّهج هذا اللّون من الحبِّ أو عشق الأعراب ، وارتسمت معالمه تقريباً في بوادي نجد والحجاز ، في العصر الأموي ، حيث كثُر النسيب البدوي العفيف ، ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّ الجاهليين لم يعرفوه ((وبحسبنا الآن أن نعلم أن هذا النوع من العفَّة عرفه الجاهليُّون)) [3].

يقول الحادرة[4]:

إنَّــا نعــفُّ فــلا نَريــبُ حليفنــا ونكــفُّ شُــحَّ نفوســنا في المطمــع

ولم يقتصر الشِّعر الجاهليُّ في المرأةِ على الأوصاف الماديَّة المحسوسة ، ولكنَّ الشُّعراءَ تغنُّوا أيضاً بالصفات الروحيَّة المعنويَّة التي أعجبتهم فيها فـ((مثلما توقَّف الشعراءُ الجاهليّون عند تجسيد الجمال الخارجي ، توقَّفوا أيضاً عند الجمال الروحي الداخلي ، على الرغم من مساحته الصُّغرى بالنسبة إلى المستوى الأوَّل مثل : الخجل ، والعفَّة ، والكبرياء ، والهدوء ، وكانوا دائماً

---

(١) الحبُّ العذري ، نشأته وتطوره ، أحمد عبد الستار الجواري ، ص١٣ .

(٢) يقول الجاحظ : "رجلان من الناس لا يعشقون عشق الأعراب أحدهما الفقير المدقع فإن قلبه يشغله عن التوغّل فيه ، وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأنَّ في الرياسة الكبرى وفي جواز الأمر والنهي ، وفي ملك رقاب الأمم ما يشغل قوي العقل عن التوغل في الحب ، والاحتراف في العشق".
من مجموعة رسائل الجاحظ ، رسالة في النِّساء ، ص٢٠٠ .

(٣) الشعر الأندلسيّ ، بحث في تطوره وخصائصه ، جارثيا جومث ، ص٥٩ .

(٤) ديوان الحادرة ، إملاء اليزيدي عن الأصمعي ، تحقيق : دكتور ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، ط . الثالثة ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م ، ص٥١ .

يربطون بين جمال الخارج والداخل بغية رسم لوحةٍ متكاملةٍ لذلك الجميل))[1] فقد وصف الشُّعراء الجاهليّون جمال المرأة المعنوي .

ومن ذلك قولُ الشنفرى الأزدي[2] :

فيا جارتي وأنتِ غيرُ مُليمةٍ إذا ذُكِرتْ ولا بذاتِ تقلَّتِ

لقد أعجَبَتْني لا سقوطاً قناعُها إذا ما مشتْ ولا بذاتِ تلفُّتْ

إلى آخر القصيدة[3] ، ولم يذكر في هذا الشِّعر شيئاً من صفاتها الماديَّة، بل وصف حياءها ، وعفَّتها ، وكرمها وإن كان أجملَ وصفهَا بالحسن في بيتِه الذي يقول فيه[4]:

فدقَّتْ وجَلَّت واسبكرَّت وأكمَلَت فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسنِ جُنَّتِ

لذا ، فأنَّه من غير المنصف القول بحسيَّة الشعراء الجاهليين ، ومن غير المنصف أيضاً القول إن الشعراء أمثال امرئ القيس ، أو النابغة ، أو الأعشى ((كانوا يصفون النِّساء كما يصفون الإبل ، وقلَّما نجد عندهم عنايةً بالعاطفة ، أو حرصاً على تمثيلها ، فإن وُجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة ، لم تلبث أن

---

(١) بحوث جماليَّة في الشعر الجاهلي ، دكتور عبد الله العسَّاف ، ص٦٥ .

(٢) المفضليَّات ، الضبى ، ص٢٠٠ .

وتقلّت : من القلاء ، أي إنها لا توصف بهذا ، ولا تُلام على قبيح ، من شرح الأنباري على المفضليات ، ص٢٠٠ .

(٣) وفيها :

تبيت بُعيدَ النوم تهدي غبوقها لجارتها إذا الهديَّة قلَّتِ

تحلُّ بمنجاة من اللَّوم بيتها إذا ما بيوتٌ بالمذمَّة حُلَّتِ

كأنَّ لها في الأرض نسياً تقصّهُ على أمِّها وإن تكلمك تبلَّتِ

أميمة لا يخزي ثناها حليلها إذا ذُكر النسوان عفَّت وجلَّتِ

إذا هو أمسى آب قرَّة عينه مآب السَّعيد لم يسل أين ضلَّتِ

فدقَّت وجلَّت واسبكرت وأكملت فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسنِ جنَّتِ

المفضليات ، الضبي ، ص٢٠٠ .

(٤) المفضليات ، الضبي ، ص٢٠٢ .

تزدري هذه العاطفة ازدراءً ، لأنَّها كانت عاطفة ماديَّةً غليظة إن صحّ التعبير))[1].

وقد وجدنا عند شاعرٍ مثل الأعشى يجمع في وصف المرأة بالظَّبية عناصرَ معنويَّة من أبرزها : الرقَّة ، والحنان ، والأمومة ، والرعاية ((والأعشى من أشدِّ الشُّعراء إيغالاً في الأوصاف الحسيَّةِ للمرأة ، وأنَّ مطلوبه منها لهو وفتوَّةٍ وصبوة ، ومع ذلك يجري هذا العرق النفيس في شعره ، ونحن نهمله ولم نثبت معناه مع ظهوره ظهوراً واضحاً ، ويدخل في هذا كلُّ ما يشير إلى الأمومة من مثل "مغزلة ، وأم غزال ، وترعى أغنَّ " . . . إلى آخره))[2] ، ونرى مثل هذه الصفات المعنويَّة الجميلة للمرأة في قول الأعشى أيضاً[3]:

ليست كمن ِكرهُ الجيرانُ طلعَتَها ولا تراها لسرِّ الجارِ تختتلُ

ثمَّ إن الشِّعر رموزٌ وإشاراتٌ ولمحات ((ولهذا نرى أنَّ كل ما يقول الشَّاعر في شعره من مغامرات في هذا الباب لا يصحُّ أن يؤخذ منه شيءٌ على أنَّه حقيقة ، ولو كان الشاعر قد خالطَ كما وصف ، لما وجد في نفسِهِ شعراً يتوقَّد

---

(١) حديث الأربعاء ، دكتور طه حسين ، ٢٢٥/١ .

(٢) دراسة في البلاغة والشعر ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٢٥٦ .

ويرى بعض الباحثين في قول الأعشى :

وما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبلٌ هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزَر بنعيم النبتِ مكتهلُ
يوماً بأطيب منها نشر رائحةٍ ولا بأحسن منها إذا دنا الأصل

أنَّ في هذه الأبيات ((صوراً جمالية خلقية تضفي على الجمالُ الخارجي ، جمالاً معنويًا يؤثر في النفس ، ويحقق لهريرة الاكتمال . . . وقد فطن الأعشى إلى ذلك الجمال الخفي الذي يكتَمِل به الجمال الإنساني فراح يرسم صورة المرأة الجسد ، والفعل)) .

الأعشى الكبير ، شاعر اللذة والحياة ، دراسة ، دكتور مفيد قميحة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م ، ص٦٨ .

(٣) ديوان الأعشى ، ص٢٧٩ .

باللَّوعةِ التي توشك أن يتوقَّد بها الشِّعر نفسُه ، وهذا وجهٌ من معنى قولهم : أعذب الشِّعر أكذبُه))[1].

وقد وجدنا شعراً جاهليًّا يتوقَّد بهذه اللَّوعة ، ويظهرُ فيه جمالُ البوحِ وحلوُ التذلُّل إذ يقول المرقِّش الأكبر ، يصف شدَّة شوقه وولعه بأسماء[2] :

أغالبُـــك القلـــبُ اللجـــوجُ صـــبابةً   وشـــوقاً إلى أسمـــاءَ أم أنـــت غالبُـــه؟

يهـــيمُ ولا يَعيـــا بأسمـــاءَ قلبُـــهُ   كـــذاك الهـــوى إمـــرارُهُ وعواقبُـــه

إنَّ الزعم الذي ((يلهجُ به بعض المعاصرين من نسبة قدماء الشُّعراء العرب إلى أنَّهم ماديّون في مذهب الغزل ، باطلٌ بحق ، وأحسبُ أنَّ هؤلاء أتوا من حيث وجدوا أوصافاً للشَّحم واللَّحم ، ولا كلُّ الأجساد التي وُصفت تجري على معنى إرادة اللَّذة ، ثم إنَّ القرآن الكريم لم يكن ليخاطب العرب فيمتَنَّ عليهم فيما امتنَّ عليهم به من آلائِه ، بنعم المودَّة والرَّحمَة في الزَّواج ، لو لم يكن يعلمهم مدركين لهذا المعنى ، وإنَّما كان يخاطبهم بما يعلمون ويدركون ، وليست الرَّحمة والمودة لعمري ممَّا يُوسَم بأنَّه ماديّ ، وقد عبَّروا عنها في الشِّعر كأصدق ما يكون التعبير))[3]، ونحن حين نذكر أن الشِّعر العفيف عرفه الجاهليون ، لا يفوتنا أن نؤكِّد أنَّ هذا النسيب قد نما وترعرع في البيئات البدويَّة في العصر الأموي ، وتحدَّدت معالمه وملامحه في هذا العصر ، إذ

---

(١) دراسة في البلاغة والشِّعر ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٢٩٩ .

(٢) ديوان المرقِّشين ، ص٤٣ ، ويقول فيها :

أيُلحِي امرؤٌ في حبّ أسمـــاء قـــد نـــأى   بغمـــزِ مـــن الواشـــين وازورَّ جانبُـــه

وأسماءُ هـــمُّ الـــنفسِ إن كنـــت عالمـــاً   وبـــادي أحاديـــثِ الفـــؤاد وغائبُـــه

إذا ذكرتـــهـــا الـــنفس ظلْـــتُ كـــأنني   يزعـــزعني قفقـــاف وردٍ وصـــالبه

((والمرقِّش الأكبر اشتهر بحبّه العظيم لأسماء ابنة عمّه عوف ، فعاش ومات من أجل هذا الحب ، وكان من المتيّمين ، وله فيها أشعار خالدة تنزف ، شوقاً وأسى)).

ديوان المرقشين ، ص١٠ ، المقدّمة .

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ٣٠٩/٣ .

ارتبط مسمَّاه بقبيلة عذرة ، ولكننَّا نقول ؛ إنَّه إذا كان الشُّعراء منذ الجاهليَّة قد عرفوا ، هذا الحبَّ العفيف وخبروه ـ ولم تكن رقَّةُ الإسلام قد طوَّعت القلوب فَعَصَفَتْ بها رياح هذا الحبّ في العصر الأموي ـ وإذا كانت الصحراءُ القاسيةُ قد أثمرت هوًى يذوب رقَّة وأبدعت شعراً تغنَّى فيه أصحابُه بتأجُّج المشاعر وصفائها وعمقها ونقائها ، فلا عجب إذًا أن يتغنَّى بهذا الحبّ شعراء عاشوا في أحضان الحضارة والتَّرف ، وقلَّبتهم أيدي النعمة ، فقد ((تقدَّم ذلك الحبّ العذري من الصحراء ، ليدخل قصور الخلفاء ، فعبَّاس بن الأحنف في بلاط هارون الرشيد عام ٨٠٠م ، لا يختلف كثيراً عن جميل بثينة))[١]، لأنَّ العاطفة التي يتناولون التعبير عنها واحدة فـ ((التشابه في نماذج القول العاطفي أبداً يكون مستمدًّا من التشابه العاطفي بين الناس ، ومرمياً فيه إلى تشخيص مثلٍ أعلى ، تضمحلُّ معه أوجه الخلاف بين التجارب الفرديَّة ، والشاعر وهو فرد يعمد إلى أن تتَّحدَ تجربته الخاصَّة مع المثل الأعلى النموذجي ، فعلى مقدار صدقه وحرارته ومقدرته على البيان ، تكون معاني الصدق والحرارة والإبانة في النموذج الذي يعرضه))[٢]، فلا يعني ترفُ الحياةِ بالضرورة ترفاً للمشاعر ، وغنًى عن حقيقةِ الحبّ الصَّادق ، ولوعته ، وألمه ، ولذَّته ، فقد وضع ابن حزم كتابه طوق الحمامة وهو من أُسرةٍ عريقةٍ في الأندلس ، ذاتُ ثراء وجاه ذكر فيه علامات الحبّ ولوعاته وما يكابده المحبُّونَ فيه[٣]، ((وعلى أيِّ حالٍ ، فإن

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، تحقيق : فاروق بيضون ، كمال دسوقي ، مراجعة : مارون الخوري ، دار الجيل ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط . الثامنة ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٣م ، ص٥٢١ .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ٢٨٩/٣ .

(٣) كان ابن حزم من أسرةٍ قريبةٍ من السلطان ، وتولَّى أبوه الوزارة في آخر عهد الأمويين الأول بالأندلس ، فنشأ في بيت الرَّفه والنعيم ، وتولَّى هو أيضًا الوزارة ، فوزر لعبد الرحمن الخامس المسمَّى بالمستظهر الذي بويع بالخلافة في رمضان سنة ٤١٤هـ ، وكانت سن ابن حزم إذ ذاك نحو الثلاثين .
انظر : طوق الحمامة ، المقدمة ، ص د .

الأندلس ، عرفت الشِّعر الماديَّ المحسوس ، كما عرفت الشِّعر العذري ، كما لمحنا بعض صوره في الشَّوق ، والسقم والهجران ، وإذا كان الأوَّل كثيراً غالباً ، وكان لابدَّ أن ينصرف أصحابُ اللَّون لعذري عن وصف المرأة وصفاً ماديًّا ، وإنما حام غزلهم حول معاني الصدّق في الحب ، والصبر على الهجران ، والشكوى من الشوق ، لذلك جاء غزلهم تعبيراً عن عاطفةٍ ذاتيَّة ، وانفعالاتٍ شخصيَّة ، تُشعُّ عن صدق الشعور ورقَّة الاستعطاف ، وشكوى البعد ، وغالبًا ما كان يتَّسم بلغة الشعر القديم كما نرى في قول قاضي الجماعة يحيى الليث :

نـــازحَ الـــدارَ نَبَـــابِيَ واغتـــربْ ورمـــاهُ الـــدَّهرُ رشـــقًا مـــن كَثَـــبْ
بعُـــدتْ عـــن دارِ ليلـــى دارُه وهـــو في حبـــلِ هـــواهُ مضَّـــطرب
فرجَـــتْ نفســـيَ أن تشـــفى بكـــم فرحـــةٌ في الحـــبِّ شـــيبتْ بكـــربْ

فاللفظ (نازح الدّار) و (بنا) والاسم (دار ليلى) من استعمالات الشعر المتداولة في فن الغزل منذ القدم))[1].

فقد انتقل هذا النسيبُ البدويُّ بكلِّ معالمه وملامحه لحياة الحضارة والتَّرف ، التي قد تسودُ فيها الماديَّةُ ، وقد يضعف فيها الشعور بالحبّ الحقيقي تجاه غيره من أنواع الحبّ ، أو بالأحرى المتعة ، ولكنَّ الأندلسيين عرفوا هذا اللَّون من الحب ، ووطِئت أخفافُ هذا النسيب بساط الأمراء ، وبلاطات الحكَّام ، لأن أمرَ الشِّعر في مجمله لا يخضعُ لقسمةٍ دقيقة بين البوادي والحواضر ، أو بين الترف وشظف العيش ، لارتباطه بالشُّعور ، ولارتباطه في النسيب بأسمى العواطف الإنسانيّة وهي الحبّ .

ولذا ؛ فإنه عندما قسَّم طه حسين الغزل ، فذكر أنَّ عفيفه كان في البادية ، والقسم الآخر وهو الغزل الماديُّ فكان في الحاضرة[2] ، فإنَّ هذا وإن صدق في

---

(١) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، دكتور نافع محمود ، ص٢٠٦ .
والأبيات في يتيمة الدَّهر ، الثَّعالبي ، ٦٢/٢ .

(٢) انظر : حديث الأربعاء ، دكتور طه حسين ، ١٨٨/١ .

معظمه على الغزل في العصر الأمويّ ، إلاَّ أنَّنا نجدُ غزلاً عذريًّا من حضريّ ، وغزلاً حسّيًّا من بدويّ ، فالغزلُ العذريُّ ، وإن صحَّ أنَّه يعبِّر عن الحياة البدويَّة ، وصورها ، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أن الحضر لم يعرفوه ، وفي الشِّعر الأندلسيّ ((لم ينفرد بالغزل الأنثويّ شاعرٌ واحد ويتفرَّغ له ، وإنما كان الشعراء جميعاً يعالجونه منفرداً ، أو مزدوجاً ، حسّيًّا، أو عفيفاً ، لأنَّه أخفُّ الأغراضِ وأشفُّها ، وأقرب الفنون إلى النَّفس الإنسانيَّة ، وأكثرها التصاقاً بها ، ومن هنا كان ديوان الغزل الأندلسيّ ، ضخماً كبيراً ، ينطوي على عدد غزير من المقطَّعات والقصائد في هذا المضمار))[1].

ولذا فإنَّه من غير الصحيح كما قال غومث : أن يُرمى العربُ في الأندلس بالحسيَّة الهمجيَّة ، وهم الذين أقاموا قروناً ثلاثة يتغنّون بالحبّ العذري ، ويحلّلونه ، ويرسمون له المناهج[2]، وكان الشُّعراء في الأندلس على وعيٍ تامٍّ بمدلول الهوى العذري ، كما عبَّر عنه غير شاعر ، ومنهم ابن مطرف الغرناطي الذي يقول[3] :

أنا صبٌّ كما تشاءُ وتهوى | شاعرٌ ماجدٌ كريمٌ جوادُ
أرضَعَتني العراقُ ثديَ هواهَا | وغذَتني بظرفِها بغدادُ
سنَّةٌ سنَّها قديماً جميلٌ | وأتى المحدثونَ مثلي فزادُوا

فالشُّعراء العرب في الأندلس لجأوا إلى البادية بكلّ صورها وخيالاتها للتعبير عن حبٍّ ملك عليهم قلوبهم ، وكيف لا يكون ذلك وهم قد انتموا فكريًّا وثقافيًّا وشعوريًّا لأسلافهم البدو ، ولذا حقَّ للشَّاعر أن يتغنَّى بعذريّة الحب ، وربَّما فعل ذلك رغبةً منه في تأصيل معنى هذا الشعور وقوّته ، ولذا لم

---

(١) الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين ، دكتور محمد مجيد السَّعيد ، ص١٥٥ .
(٢) انظر : الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ، جارثيا جومث ، ص٦١ .
(٣) نفح الطيب ، المقّري ، تحقيق : دكتور إحسان عبّاس ، دار صادر ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، ٦٠٩/٢ .

يجد الأندلسي غضاضةً في أن يُحمِّل القصيدة ما شاء من بداوة المشاعر ، فيأخذ من الإبل حنينها ، ويجعل من الصحراء الممتدَّة مسرحاً لها ، وقد صرَّح بذلك ابن خفاجة في خطبةِ ديوانه إذ رأى أنَّه ليس لأحدٍ أن ينعى ما يلمُّ به من طريقة الصوري ، أو يحتذيه من شعر مهيار الديلميّ[1].

ولذا ؛ فإننا في الأندلس ((إلى جانب الأوصاف التي يحتلُّ منها ما هو حسيّ مساحةً واسعة ، نجد مقطوعات أخرى ليست بأقلَّ عدداً ، نلحظ خلالها إجلالاً حقيقيًّا للمرأةِ لا جدال فيه ، ونعتقد أنَّ هذه الاندفاعات الغنائية ، وفيها لا يكادُ الهوى الحسيّ يطلُّ برأسه ، لا توجّه فحسب إلى المرأة التي جعل منها وضعها رقيقة مجرّد جارية تخضع لكل نزوات سيِّدها ، وقد يكون في كل ما يُقال شيءٌ من الخيال ، وهو ما لا شكَّ فيه ، أمَّا القول بأنَّ هذه العواطف السَّامية لم يكن لها أساسٌ في الواقع ، فأمرٌ يبدو بعيد الاحتمال)) [2].

وبعدُ ؛ فإنَّنا سنحاول هنا أن نرصدَ أهمَّ معالم هذا الحبّ العذريّ في الشِّعر الأندلسيّ ، ونتتبَّع ـ قدر المستطاع ـ طريقة الأندلسيين في التعبير عن هذا الحب ، ومن أهمِّ هذه المعالم : العفَّة والصُّون ؛ لأنَّه ((حبٌّ ليس له غاية يسعى إليها حتَّى إذا بلغها خمد سعيره وانطفأت جذوته)) [3] ، والبدويُّ بطبعه عفيف ، ولذا كان هذا التغنّي بالعفَّة من علاماتِ المروءة في الرَّجل ، فافتخروا بهذه الصِّفة منذ القدم إذ يقول عنترة[4] :

وأغضُّ طرفي ما بدتْ لي جارتي ... حتى يواري جارتيَ مأواهَا

إني امرؤٌ سمحُ الخليقةِ ماجدٌ ... لا أتبعُ النفسَ اللجوجَ هَواهَا

---

(١) انظر : ديوان ابن خفاجة ، خطبة الديوان ، ص١١ .

(٢) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ، تحقيق : دكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . الأولى ، ١٩٨٨م ، ص٣٥١ .

(٣) الحبُّ العذري ، نشأته وتطوره ، أحمد الجواري ، ص٥٠ .

(٤) ديوان عنترة ، ص٢٠٨ .

ويقوى معنى العفَّة ، إذا كان الشاعر قد حرص عليه مع من يحبّ ، وجعلته هذه العفَّة يقنعُ بالنظرة دون غيرها وهو المعنى الذي عبَّر عنه الشاعر الأندلسي ابن زُمْرُك من قصيدة بدويَّة ، ذكر فيها (البارق النجدي)[1] و(اللّوى)[2] و (الأظعان)[3] و (العذيب وبارق) [4] و (سكَّان رامة) [5] و(ليلى)[6] و(أخفاف المطيّ) [7] ، يقول[8] :

تقضَّيتُ منها فوقَ ما أحسبُ المنى ... وبُردُ عَفَافي صانَهُ اللهُ من بردِ

وليس سوى لحظٍ خفيٍّ نجيلُه ... وشكوى كما ارفضَّ الجمانُ من العقدِ

وفي أبيات ابنِ زمرك لمحةٌ من قول جميل بثينة[9] :

وإنّي لأرضَى من بثينةَ بالذي ... لو أبصرهُ الواشي لقرَّتْ بلابلُهْ

بلا ، وبأن لا أستطيعَ وبالمنى ... وبالأملِ المرجوِّ قد خاب آملُهْ

وبالنظرةِ العجلى وبالحولِ تنقضي ... أواخرهُ لا نلتقي وأوائلُهْ

ولذا ، فإنه في الأندلس ((يصادف الإنسان بين ماأنشأ العرب من شعر الغزل أبياتاً تروعهُ منها حالة نفسيَّة غريبة من العفَّة ، يعسُر تحديد ماهيَّتها)) [10].

يقول ابن خفاجة مفتخراً بهذه الصِّفة[11] :

فإنّي والعفافُ من شيمي ... آبي الدنايا وأعشقُ الحَسَنَا

ويقول كذلك لسانُ الدينِ بن الخطيب[12]:

تهشُّ لنا البدورُ بكلِّ خدرٍ ... وتهوانا الشموسُ بكلّ كلَّة

(١-٧) ديوان ابن زمرك ، ص٣٧٩ .

(٨) المصدر السَّابق ص٣٨١ .

(٩) ديوان جميل بثينة ، ص٢٣٢ ، تحقيق : عدنان درويش ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط . الثالثة ، ٢٠٠١م .

(١٠) الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، غارثيا غومث ، ص٥٩ .

(١١) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٢ .

(١٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٥٢٣/٢ .

ويُمْرِضُنَا العفافُ فكم عليلٌ وما غيرُ الهوى والكتم علَّة

وابن الخطيب يذكر في قصيدة أُخرى أن هذه العفَّة من (عهود الهوى العذريّ) إذ يقول[1] :

سقى اللهُ عهدَ القربِ أفضلَ ما سَقَى عهودَ الهوى العذريِّ من صوبِ عهدِهِ

وفيها يقول[2] :

فبايعتُ سلطانَ العفافِ ولم أُجِزْ على فكريَ إلاّ الوفاءَ بعهدِهِ

ويقول ابن الأبّار مفتخراً بهذا العفاف ، وإن كان قد ذكر المشيبَ أيضاً في نهيه له عن اللّهو[3] :

لولا قديمٌ من عَفافي تالدٌ وطريفُ شيبٍ قد ألمَّ حديثُ

لركضتُ من خيلِ الشباب مُغَارَها ولكان لي ولمن هويتُ حديثُ

ونلمس في هذين البيتين معنى قول زهير بن أبي سُلمى[4] :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطلُه وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا وراواحِلُه

أي (ترك الصِّبا وترك الركوب فيه)[5].

وزهير يقصد أنَّ المشيب كان ناهياً له عن اللّهو ، ولذا قال (صحا القلبُ) ، أمَّا ابن الأبّار فقد جمع بين الشيبِ والعفاف في نهيهما له عن اللّهو .

وكثيراً ما يصادفنا في النسيب الأندلسيّ ، تصوير هذه العفَّةِ حين يخلو المحبُّ بمن يهواه دون رقبة ، ولكنَّه يتّخذُ من عفافه وتصوُّنه رقيباً ((ويجب أن نعترف بأنَّ الكثيرين منهم كانوا يرون أنَّ المتعة الحقيقيّة الوحيدة التي يبحثون

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢٨٦/١ .

(٢) المصدر السَّابق ، ٢٨٧/١ .

(٣) ديوان ابن الأبّار ، ص١٠٩ .

(٤،٥) ديوان زهير بن أبي سُلمى ، ص١١٣ شرح ثعلب ، تحقيق : دكتور حنا الحيّ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . الثالثة ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م .

عنها هي التمتُّع بحضور المحبوب ، وهذه العفَّة وهي الملمح الوحيد الدال على احترام الرجل للمرأةِ التي يفكّر فيها ، نجدها موقفاً طبيعيّاً عند بعض شعرائنا الأندلسيين))[1].

وفي ذلك يقول ابن زُمْرُك[2]:

خلوتُ بمن أهواهُ من غير رقبةٍ ولكنْ عفافي لم أكن عنه خاليا

وهي قصيدة يذكر فيها أيضاً (الهوى العذري) [3]:

وأذكرني ثغراً ظمئتُ لوردهِ ولا والهوى العذريِّ ما كنتُ ناسيًا

وفي هذه القصيدة يذكر أيضاً (العذيب وبارق) [4] و (عيون السّرب) [5].

وينحو الشُّعراءُ في ذلك منحى قصصيًّا ، في تأكيد معنى العفَّة ، فيذكر الشَّاعر أنَّه انفرد بالمحبوبة وتعاطَيَا عذب الحديث ، ولكن عفافه أبى عليه إلاَّ أن يصونها ، وفي هذا المعنى يقول يوسُف الثالث[6] : (مانَعَني صَوْنِي أنْ ألثُمَها).

وهي قصيدة يذكر فيها أن هذا العفاف (شيمة عذريَّة) ، يقول[7]:

هـا إنَّهـا لشـيمةٌ عذريَّـةٌ عنـها قبـولُ العـذرِ للمعتـذرِ

وفيها يحشد كثيراً من المعطيات البدويَّة :

سقيا الحمى ، الأظعان ، وحيٍّ ليلى ، والصحراء ، وسهام ظباء رامه[8] :

وكـم رَمَـتْ رامتُـه يـومَ النَّـوى بأسـهمٍ مـن التفـاتِ النَّظـرِ

---

(١) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ص٣٧٠ .

(٢،٣،٤) ديوان ابن زمرك ، ص٥٢٠ .

(٥) المصدر السَّابق ، ص٥٢١

(٦،٧،٨) ديوان يوسف الثالث ، ص٨٥ .

وقد وجدنا فيما سبق أن ابن الخطيب يذكر (عهود الهوى العذريّ) [١] ويذكر العفاف ويسميّه سلطاناً (سلطان العفاف) [٢] وابن زمرك يذكر (العفاف) [٣] و(الهوى العذري) [٤] وكذلك يوسف الثالث حين ذكر معنى العفاف والشِّيمة العذريَّة[٥] ، وقد وجدنا في هذه الأمثلة ربطاً قويًّا بين المعنيين ، معنى العذريَّة ، ومعنى العفاف ، وفيه قدرٌ كبيرٌ من التمثُّل بالقيم البدويَّة في مواقف العاطفة والحب ، وقد وصف هنري بيريس هذا العفاف بأنَّه ((احترام فروسيٌّ للمرأة))[٦] أو نوعٌ من ((الحبِّ المهذَّب))[٧] ، وهو معنى الفروسيَّة البدويَّة المتحدِّرة إلى الأندلس من خلال الحبِّ العذريّ وشعره وقصصه ، ولذا ((لم يتردد ستندال في سفره عن الغرام من نسبةِ سائر أدب الفروسيَّة والعشق إلى العرب ، وأن أصولـه في مواسـم الحـج ، إذ تلتقي الأفواج على صفـاء العبادة وضبط عواطف القلوب عند الهوى والشهوات))[٨].

ويمضي الشَّاعر الأندلسيُّ مؤكّداً معنى العفَّة حين يذكر أنه رجع عن وصال المحبوبة عفَّةً وحياءً ، لا خوفاً من أهلها الحريصين عليها ، وفيه معنى الرِّعاية والخوف على المرأة وحمايتها ، إذ يقول ابن الأبَّار[٩] :

إذا زُرتُها لاقيـتُ حُجْبـاً مـن القَنَـا ... وبيضَ الظُّبى تحمي البراقع والـحُـجْـبَا

فأرجعُ أدرَاجِي ولـو شـئتُ خـاضَ بي ... لقُبَّتـها[١٠] طِـرفي جَنَابَتِهـا القَبَّـا[١١]

---

(١) انظر : ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢٨٦/١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ٢٨٧/١ .

(٣،٤) انظر : ديوان ابن زمرك ، ص٥٢٠ .

(٥) انظر : ديوان يوسف الثالث ، ص٨٥ .

(٦،٧) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ص٣٧١ .

(٨) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ٤٤٨/٤ .

(٩) ديوان ابن الأبَّار ، ص٦٨ .

(١٠) القبَّة من الخيام بيت صغير مستدير من بيوت العرب ، اللِّسان ، مادة (قبب) .

(١١) القبَّا : يطلق على الفرس الضّامر ، اللِّسان : مادة (قبب) .

وما ذاك جُبناً بل حياءً وعفَّةً من الحيِّ أن يدروا بمن شَفَّني حُبَّا

وفي وصفٍ لمغالبةِ النفس هواهَا يقول ابن سهل الأندلسي[1]:

عزم الغرامُ عليَّ في تقبيله فجعلتُ أُبدي الطَّوعَ عن عزماته
وأبى عفافي أن أُقبِّل ثغرهُ والقلبُ مطويٌّ على جمراته
فاعجب لملتهبِ الجوانحِ غلَّةً يشكو الظَّما والماءُ في لهواته

وفي هذه الأبيات نلمسُ تمدُّحاً بسموّ الأخلاق ، والقدرة على التحكُّم في النفس ، وما يتطلَّبُه ذلك من قوَّةٍ نفسيَّة إذ نجد ((إظهار الصبابة والصدق فيها مع العفَّة التي تذود الرغباتِ ولا تزعمُ أنَّها تتسامى فوقها ، ومن أجل هذا نجد اللَّوعة عندهم أقوى وأحرّ))[2]، والشَّاعرُ الأندلسيُّ حين يذكرُ هذه العفَّة في سياق قدرته على ما يريد ، إنَّما يؤكّد قوَّته النفسيَّة ، ومروءته ، مع عدم التخلّي عن واقع الرغبة ، فهو يدافعها في نفسه ولا يتعالى عليها فهذا الشِّعر ((من صنف الغرام البدويّ الذي يفرضُ العفافُ على أصحابه وازعَ المروءةِ والأمانةِ والصوْن والحصانة))[3]، وهو المعنى الذي ذكره المتنبي في معرض فخره بقوَّته النفسيَّة وعفافه مع القدرة حين قال[4] :

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادرُ ويعصي الهوى في طيفهَا وهو راقِدُ

وليس في توقِير الشاعر لمن يحبُّ أعلى مرتبةً من ذلك ، وقوله (عن ثوبها) كلمة بالغة في وصف مقدار هذا العفاف ، فهو يردُّ يده عن الثوب أن تلمسه ، فكيف بسواه ، واحترس المتنبي بقوله (وهو قادرُ) في بيان أنَّه يستطيع ذلك ، وأنَّ ما يمنعه عنها قوَّته وقدرته على نفسه ، ويبالغ المتنبي في إظهار مقدار هذه

---

(١) ديوان ابن سهل ، ص٣٤٩ ، وقد ذكر المحقق . دكتور إحسان عباس أن الأبيات نُسبت أيضاً إلى أبي بحر صفوان بن إدريس .

(٢،٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ١٨١/٣ .

(٤) شرح ديوان المتنبي ، تحقيق : عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٦م ، ٣٩٠/١ .

العفَّة ، وأنَّه قادرٌ عليها حتّى في المنام ، فجاء (بالطَّيف) وكيف عصى الهوى معه ، في مجانسةٍ لطيفة بين القدرة والرقاد ، (قادر) (راقدُ) ، وقد ألمَّ بهذا المعنى قبل ذلك ، الشَّاعر الأندلسي أحمد بن فرج الجيَّاني (ت : سنة ٢٦٦هـ) مع فرقٍ كبيرٍ بين الكلامين فقال[١] :

بأيِّهما أنا في الشُّكرِ بادي ... أشكرَ الطَّيفِ أم شُكَرَ الرُّقادِ
سرى لي فازْدَهى أملي ولكنْ ... عففتُ فلم أنلْ منه مُرادي
وما في النَّومِ من حرجٍ ولكن ... جريتُ من العفافِ على اعتيادِ

ونلاحظ في النسيب العذري الأندلسي الذي يذكر فيه أصحابه العفاف ، مثل قول ابن زُمرك[٢] :

(ولكن عَفَافِي لم أكنْ عنه خاليًا) .

ويوسُف الثالث[٣] :

(مانَعني صوني أن ألثُمَها)

وابن سهل[٤] :

(وأبى عفافي أن أُقبِّل ثَغرهُ)

أنَّ في تأكيد الشَّاعر على عفافه مدحاً لذاته بالقوّة ، وبالقدرة على التحكُّم في النَّفس والتمتُّع بخلال الخير ، وقد سنَّ العُذريون هذه السُّنة في شعرهم ، يقول جميل بثنية[٥] :

لا والذي تسجدُ الجباهُ له ... ما لي بما دونَ ثوبها خبرُ

---

(١) الحدائق والجنان ، أحمد بن فرج الجيَّاني ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، نادي تراث الإمارات ، الإمارات ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م ، ص٢٤ .

(٢) ديوان ابن زُمرك ، ص٥٢٠ .

(٣) ديوان يوسف الثالث ، ص٨٥ .

(٤) ديوان ابن سهل ، ص٣٤٩ .

(٥) ديوان جميل بثنية ، ص٧٧ .

ولا بِفيهـــا ولا همَمـــتُ بـــه   مـــا كـــان إلاّ الحـــديثُ والنَّظـــرُ

ولكن الملمح الذي وجدناه في النسيب العذري الأندلسي ، هو فرقٌ في التناول غير ظاهرٍ بقوَّة ، يكادُ يجعلُ هذا الشِّعرَ في مسافةٍ وسطً بين شعر الفخر وشعر النسيب ، حيث تغنَّى معظم الشُّعراء الأندلسيين بعفَّتهم هم دون محبوباتهم ، وهذا بخلاف شعر جميلٍ وقيس وكثيرٌ عزَّة الذي يقول[1] :

صـــفوحٌ فمـــا تلقـــاكَ إلاّ بخيلـــةً   فمن ملَّ منـــها ذلـــك الوصـــل ملَّـــتِ

وهو أيضاً يقول[2] :

قضـــى كـــلَّ ذي ديـــنٍ وعـــزة خُلَّـــةٌ   لـــه لم تُنِلـــه فهـــو عطشـــانَ قـــامِحُ[3]

وله أيضاً[4] :

فأقســـمُ لـــو أتيـــتُ البَحْـــرَ يومـــاً   لأشـــربَ مـــا ســـقتني مـــن بُـــلال[5]

ويقول[6] :

بَخِلْـــتِ فكـــانَ البخـــلُ منـــكِ ســـجيَّةً   فليتـــكِ ذو لـــونَين يُعطـــي ويمنـــعُ

وكذلك جميل الذي يقول[7] :

فقلتُ لـــهـــا : جُودي! فقالـــت مجيبـــةً   أللجـــدِّ هـــذا منـــكَ أمَ أنـــتَ هـــازلُ

وله أيضاً[8] :

وكـــم لي عليهـــا مـــن ديـــونٍ كـــثيرةٍ   طويـــلٌ تقاضـــيها بطـــيءٌ قضـــاؤُها

(١،٢) ديوان كثيرّ عزةً ، تحقيق : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . الثانية ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م ، ص٥٥ .

(٣) قامح : القامح من الإبل الذي اشتدَّ عطشُه حتّى فتر لذلك فتوراً شديداً ، اللِّسان : مادة (قمح) .

(٤) ديوان كثيِّر ، ص١٨٥ .

(٥) البلال : الماء مما يُبلُّ به الحلق ، اللِّسان : مادة (بلل) .

(٦) ديوان كثيّر ، ص١١٧ .

(٧) ديوان جميل ، ص١٤٧ .

(٨) المرجع السَّابق ، ص٢٠ .

تجـــودُ بـــه في النَّـــوم غـــير معـــرَّدٍ ويحـــزنُ أيقاظـــاً عليهـــا عطاؤهـــا
إذا قلـــتُ قـــد جـــادَتْ لَنـــا بنوالهـــا أبـــتْ ثم قالـــتْ : خطَّـــةٌ لا أشـــاؤُها

ولا نعني بذلك خلوَّ الشِّعر الأندلسيّ من ذكر عفاف المحبوبة إذ يقول يوسف الثالث[1] :

كلانـــا عليـــه للعفـــافِ مـــلاءةٌ ومـــن غســـقِ الظلمـــاءِ سَـــتْرٌ مـــدثَّر

فذكر عفافهما معاً ، مع أنَّ ظلام الليل يسترهما ، ولابن زيدون يمدح عفاف من يحبُّ[2] :

وتـــبرزُ خلـــفَ حجـــابِ العفـــافِ وتســـفرُ تحـــت نقـــابِ الخجـــل

ولكنَّ الذي نعنيه أنَّه غلب على الشاعر الأندلسي عند ذكر العفاف أن يمدح نفسه هو بذلك ، دون أن يجعل هذا العفاف صفةً مشتركةً بينه ومن يحبُّ إلاّ في القليل .

وقد يكون معنى العفَّةِ عندهم متكلَّفاً نظراً لواقع الحياة المعيشة واختلاف البيئة ، ولكنَّنا لا نستطيعُ الحكم مطلقاً في جميع الأحوال على أمرِ هذا الشِّعر بالتكلُّف لأنَّه لا يمنع كما ذكرنا في مقدَّمة هذا المبحث أن يكون لصدق الشُّعور والتجربة الذاتية دورها في وجود هذا التشابه العاطفي المعنوي ، بين الشعراء البدو ، وأحفادهم الأندلسيين ، وكيف لا يكون ذلك ، وأمرُ العفَّةِ قد أطّره الإسلام بأُطُره ، ولذا وجدنا ابن حزم يفرد بابه الأخير من كتابه طوق الحمامة في الحديث عن العفَّةِ وسمّاه (باب فضل التعفُّف) [3] وجعله مقابلاً للباب الذي قبله وهو في (قبح المعصية)[4]، ((لأنَّ العفَّة في القول والعمل غير مرهونةٍ بعصرٍ من العصور ، وأن انغماس أكثرِ الناس وفيهم الشُّعراء في القرن الثاني بالمجونِ ومفاتن الحضارة الجديدة ، لا يعني انتفاء العفَّةِ واختفاءها

---

(١) ديوان يوسُف الثالث ، ص٥٨ ..
(٢) ديوان ابن زيدون ، ص٤١٨ .
(٣) طوق الحمامة ، ابن حزم ، ص١٥٤ .
(٤) المصدر السَّابق ، ص١٣٢ .

نهائياً ، إذ لابد من أن يوجد في كلّ مجتمع الخيّرون والأشرار ، المُجَّان والزُّهاد ، وأهلُ الطهر والعفاف))[1]، فالشِّعر بمعانيه وصوره لا يقتصر على زمان أو مكان ، وإنَّما يتعدَّى الحدودَ الضيِّقَة ليشمل كلَّ زمان ، وكلَّ مكان ، لأنَّه متّصلٌ بالعواطف الإنسانيَّة ، التي تظلُّها سماءٌ واحدةٌ ، ويجمعها كونٌ واحد ، يقول لسان الدين بن الخطيب[2] :

لُمْ في الهوى العذريِّ أو لا تَلُم ... فالعذلُ لا يدخُلُ أسْماعي

شأنُكَ تعنيفي وشأني الهوى ... كلُّ امرئٍ في شأنِه سَاعي

ومن هنا يظهر كيف احتَفى الشَّاعر الأندلسيّ بمعنى العفَّةِ في شعره ، وحرصَ على تقديم نفسه في هذا الشِّعر بصورة العاشق الفارس ، الذي يرغب ويريد ، ولكنَّه يعفُّ ويحمي محبوبته حتّى من نفسه .

ومن أهم معالم هذا الحبّ العذري وشيمه : التذلُّل والخضوعُ للمحبوبة ، فالشاعر المُرهَفُ يفتنُّ في إظهار دلائل هذا الحبّ والخضوع في شعره ((وحبُّه لها ، وخضوعه ، لا يُقَلِّلان من شأنه كرجل بل هما يرفعانه درجاتٍ ودرجات ، وسرت تلك النغمة من الصحراء إلى الأندلس ، ولقيت ترحيباً كبيراً))[3]، فالتذلُّل للمحبوبةِ في النسيب ، وإظهار دلالات التهالك في الصَّبابةِ ، وإفراط الوجد واللَّوعة ، والرِّقة ، والخشوع والذِّلَّةِ ، والانحلال والرَّخاوة هو المصابُ به الغرض كما ذكر قُدامة[4]، فإذا وجدنا أنَّ ابن عتيق يعيبُ على عمر ابن أبي ربيعة قوله : بينما ينعتني أبصرنني . . إلى آخر القصيدة[5] إذ قال له ((أنت لم تنسب بهنّ ، وإنَّما نسبت بنفسك ، وإنما كان ينبغي لك أن تقول :

---

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، دكتور يوسف بكّار ، دار الأندلس ، بيروت ، ط . الثانية ، ص٢٥٠ .

(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٦٥٦/٢ .

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، ص٥٢١ .

(٤) انظر : نقد الشِّعر ، قدامة بن جعفر ، ص١٣٤ .

(٥) انظر : العمدة ، ابن رشيق ، ١٢٤/٢ .

قالت لي ، فقلتُ لها ، فوضعتُ خدِّي فوطئت عليه)) [1] وإذا قرأنا أن كثيراً عاب على عمر أيضاً قوله[2] :

قـــومي تصَـــدَّي لـــه لأبصـــرهُ ثم اغمزيـــه يـــا أخـــتُ في خَفَـــرِ
قالـــت لهـــا : قـــد غمزتُـــه فـــأبى ثم اســـبطرَّتْ تســـتدُّ في أثَـــرِي

فقال له : ((أهكذا يُقال للمرأة ؟! إنما توصف بأنها مطلوبةٌ ممنَّعة))[3].

وإذا وجدنا أن ابن داود الأصفهاني في كتابه الزَّهرة سمّى الباب السادس منه ((في التذلّل للحبيب من شيم الأديب)) [4] وفيه يقول ((والحازمُ من صبر على مضاضةِ التذلُّل ، والتمس العزَّ في استشعار الذلّ))[5]، وإذا قرأنا قول ابن حزم الأندلسيّ في كتابه طوق الحمامة ((وحضرت مقام المعتذرين بين يدي السَّلاطين ،ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطَّاغين ، فما رأيتُ أذلَّ من موقف محبٍّ هيمان بين يدي محبوبٍ غضبان ، قد غمره السخط ، وغلب عليه الجفاء ، وقد امتحنتُ الأمرين ، وكنتُ في الحالة الأولى أشدَّ من الحديد ، وأنفذ من السيف ، لا أُجيبُ إلى الدنيَّةِ ، ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثَّانية أذلَّ من الرِّداء ، وألينَ من القطن ، أُبادرُ إلى أقصى غايات التذلُّل ، وأغتنمُ فرصةَ الخضوع لو نجع ، وأتحلَّلُ بلساني وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفتنُّ القول فنوناً ، وأتصدّى لكلِّ ما يوجبُ الترضِّي)) [6] ، فإذا عرفنا ذلك أمكننا أن نقول إنَّ الشاعر العربي : ((عبدٌ للهِ في تديُّنه ، عبدٌ للجمال في حبِّه))[7] يقول ابن الحدّاد[8] :

لقد ســـامني هُوْنـــاً وخَسْـــفاً هـــواكُمُ ولا غـــروَ عِـــزُّ الصـــبِّ أن يتعبَّـــدا

(١،٢،٣) انظر : العمدة ، ابن رشيق ، ١٢٤/٢ .

(٤،٥) الزهرة ، ابن داود الأصفهاني ، تحقيق : دكتور إبراهيم السَّامرائي ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط . الثانية ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٥م ، ١٠٠/١ .

(٦) طوق الحمامة ، ابن حزم ، ص٧٨ .

(٧) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكة ، ص٥٢١ .

(٨) ديوان ابن الحدّاد ، ص١٩١ .

وأمكننا أيضاً أن نفهم على نحو خاصٍّ أنَّ للمرأةِ على الشاعر العربيِّ سلطاناً لا يُقهر ، فلم تجعل الصحراءُ القاسيةُ العربَ جفاةً لا يتَّجهون بالعبادة إلى آلهةٍ يتقرَّبون بها إلى الله زُلفى كما ذكر القرآن الكريم[1] ، وإنَّما استشعروا جمال الطاعةِ في روحهم ، وهي الطاعةُ التي انسحبت على عشقِ كلِّ ما هو جميل والخضوع له في استسلامٍ محبَّب ، وقد تأصَّل هذا المعنى ، وهو معنى الخضوع بعد الإسلام ، واستشعروا عظمة الخالق الذي عَنَتْ الوجوه له ، واستشعروا حلاوة السِّجود لإلهٍ واحد ، وكما كانت لذَّة الطاعة في القلب الموحِّد لله ، كان هناك ـ مع الفارق الشَّديد ـ لذَّة الحبِّ عند شاعرٍ غلبه العشق لامرأةٍ أحبَّها ، ووضع راضياً زمامه في يدها ، ولذا كانت متعة الاستسلام لهذه المعشوقة التي امتلكت نفسه ، ولم يكن أدلُّ على ذلك ممَّا وصفه الشعراء العشَّاق ، من آلام الهوى وتباريحه ، والخضوع للحبّ ، بل التلذُّذ باستشعار سطوةِ هذا الحبّ في قلبه ((لأنَّ الألم الذي يحسُّه المحبُّ لا يذهب عبثاً ، والعبوديةَ التي يخضع لها الرجلُ الحرُّ قوَّةٌ قادرةٌ على كلِّ شيء وليست ذلَّة))[2].

ونحن نقول بمفهومنا كمسلمين : خضوع الرجل الحرّ وليست عبوديَّته ، لأن العبوديَّة لا تكون لدينا إلا لله وحده الأحد سبحانه وتعالى .

يقول ابن الحدّاد[3] :

وتـــذلُّلي لم يجـــدِ غـــير تـــدلُّلٍ والحســـنُ عـــزٌّ للحســـانِ مكـــينُ

---

(١) قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر:٣).

(٢) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ص٣٧٣ .

(٣) ديوان ابن الحدّاد ، ص٣٦٨ .

يقول ابن زيدون مستشعراً قوَّة محبوبته وسطوتها عليه[1] :

تِه أحتملْ ، واستطلْ أصبرْ ، وعِزَّ أهنْ   ولْ أقبلْ ، وقُل أسمعْ ، ومُرْ أطِعِ

إنَّ هذا التذلُّل امتدادٌ لصفةِ الفروسيَّةِ البدويَّةِ كما ذكرنا ، تلك الفروسيَّة التي تجعلُ الرَّجل لا يخشى السيوفَ القواطع ، والرماح الباترات ، ولكنَّه يعترف في لذَّةٍ بأنَّه يخشى سهام النظرات من عيونٍ جميلةٍ ملكت لبَّه ، لقد كان العرب يتغنَّون منذ القدم بأن تشترك في قلوبهم صفتان أو قيمتان تعزِّزان مفهومي الشجاعة والحبِّ ، وتوحِّدهما ، وهو أن يكون الشَّاعر خوّاضاً للحروب ، قتَّالاً للأعداء ، ولكنَّه مهزومٌ أمام انتصاراتِ الحبِّ في قلبه ، ضعيفٌ أمام امرأةٍ ضعيفة لا تملك أن تقتله سوى بأمر الحبِّ ، وقوَّتها تأتي من قدرتها على ذلك في نفسه ، وهو المعنى الذي عبَّر عنه ابن خفاجة حين قال[2] :

وإن كنتُ خوَّارَ[3] العنانِ على الهوى   فإنّي على الأعداءِ صعبُ الشَّكائمِ

فيا عجباً أن أُعطي الظَّبي مقودي   وأدرأُ عنه في نحورِ الضَّراغِمِ

ويقول أيضاً[4] :

ويا عجباً لي كيفَ أجبنُ في الهوى   وإنّي لمقدامٌ إذا الذِّمرُ[5] أحجَما

فها أنا أغشى موقفَ البينِ والوغى   فتندى جفوني عبرةً ويدي دَمَا

وإلاَّ فهذا جيبُ صدري ممزَّقاً   بكفِّي وهذا صدرُ رُمحي مُحطَّمَا

((والعروة المتينة بين الغزل والبطولة لا يجوز أن نغفلها حتى ننحِّي من قصيدة الغزل حديث الحرب ، ونراه شيئاً غير الغزل ، وكيف وقد أفصح الشُّعراء عن ما بين البطولة والغزل من علاقة وثيقة ، تجعلهما في كثير من الأحيان شيئاً واحداً ، يرى أبو الفتح عثمان بن جني أنَّه سأل المتنبي عن قوله :

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص١٧٠ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٥٩ .

(٣) رجلٌ خوّارٌ : أي ضعيف ، اللِّسان : مادة (خور) .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص١٧٤ .

(٥) الذِّمر : الشجاع ، اللِّسان : مادة (ذمر) .

وما كلُّ من يهوى يعفُّ إذا خلا عفافي ويُرضي الحبُّ والخيلُ تلتقي

قال : سألتُ أبا الطيب عن معناه وقت القراءة عليه ، فقال : المرأة من العرب تريد من صاحبها أن يكون مقداماً في الحرب فترضى حينئذٍ عنه))[1].

قال أحدُ بني القبطرنة الوزراء[2] :

ذكرتُ سُليمى ونارُ الوغى بقلبي كساعةِ فارقتُها
وأبصرتُ قدَّ القَنَا شِبْهها وقد مِلْنَ نحوي فعانقتُها

وفي هذين البيتين من قول عنترة العبسي[3] :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنَّها لمعتْ كبارقِ ثغركِ المتبسِّمِ

فالشاعر الأندلسيُّ شبَّه قدَّ المحبوبة بالقنا ، ثمَّ ضمَّن كلامَهُ وصفاً لنفسه بالشجاعة ، لمَّا قال (وقد مِلْنَ نحوي فعانقتُها) فدلَّ بذلك على أنَّ أعداءه اتَّجهوا إليه برماحهم ، فعانقها ، أي أقبل عليها وأقدم ، فزاوج هنا بين الصبوة والشجاعة ، كما فعل عنترة مع اختلافٍ في التصوير ، فقول عنترة (نواهلٌ منّي) دلّ على أنَّه ذكرها في الموقف الصّعب البالغ الصعوبة ، والسيوف تقطر من دمه ، والرِّماح تنهل منه ، والنهلُ الشرب المرّة بعد المرَّة ، وفي هذا الموقف ذكر من يحبّ ، فودَّ أن يقبّل السيوف لمشابهتها ثغرها ، فاختلف التصوير بين الشاعرين مع إرادتهما المعنى نفسه ، وهو المزج بين صفتي الصبوة والشجاعة ، والمداخلة بينهما مداخلةً شعريَّة رفيعة .

لقد ذلَّ لعزَّة الهوى ملوك وأمراء ، ووجدوا فيه ما وجده غيرهم من إحساس بعذابات الهوى ، وعدم القدرة على مدافعة قوَّةٍ منتصرةٍ هي قوَّةُ الحبّ ، ((إنَّ

---

(١) قراءة في الأدب القديم . دكتور محمد أبو موسى ، ص٢٤١ .
(٢) نفح الطيب ، المقّري ، ٣/٢٧٠ .
(٣) ديوان عنترة ، ص١٩١ .

الحبَّ يمحو الفوارق الطبقيَّة ويرفعُ العامَّة إلى مستوى الخاصَّة ، ويجعل من المحبِّ المغمور النَّسب في مستوى نبل سيِّدة أفكاره ، وما من أحدٍ يمكن أن يعبِّر عن خصائص هذا الحبِّ المشرِّف مثل ابن زيدون الذي أحبَّ ولاّدة بنت الخليفة المستكفي :

ما ضـــرَّ أنْ لم نكُـــن أكفـــاءَه شَـــرفا ... وفي المـــودَّةِ دانٍ مـــن تـــدانِيْنَا))[1]

وابن زيدون يقول أيضاً[2] :

ماذا يريبكِ مـــن فـــتى عـــزَّ الهـــوى ... فعنَـــا لنخوتِـــه بذلَّـــةِ خاضِـــعِ

وفي مثل هذا المعنى ، معنى الخضوع المحبَّب ، وتذلُّل من يهوى لمن هو أرفعُ منه مكانةً أو أقلّ ، وجدنا سليمان المستعين[3] يقول[4] :

لا تعـــذلُوا ملكـــاً تـــذلَّلَ للـــهوى ... ذُلُّ الهـــوى عـــزٌّ وملـــكٌ ثـــاني

مـــا ضـــرَّ أنَّـــي عبـــدُهنَّ صـــبابةً ... وبنو الزَّمانَ وهـــنَّ مـــن عِـــبدانـــي

إن لم أُطِـــع فـــيهنَّ ســـلطان الهـــوى ... كلفاً بـــهـــنَّ فلســـتُ مـــن مـــروانِ[5]

---

(١) الشِّعر الأندلسيّ في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ص٣٧٣ ، والقصيدة النونية موجودة في ديوان ابن زيدون ، ص١٤١ .

(٢) ديوان ابن زيدون ، ص٤٠٠ .

(٣) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي ، بويع بقرطبة منتصف ربيع الأوّل سنة أربعمائة ، وتلقّب بالمستعين بالله .

انظر : الذخيرة ، مجلد (١) ، قسم (١) ، ص٣٥ .

(٤) الذخيرة ، مجلد (١) ، قسم (١) ، ص٤٧ .

(٥) وهي القصيدة التي عارض بها قول هارون الرشيد :

ملـــك الـــثلاث الآنســـاتُ عنـــاني ... وحللـــن مـــن قلـــبي بكـــلّ مكـــان

مـــالي تطـــاوعني البريَّـــة كلُّهـــا ... وأطـــيعهنّ وهـــنَّ في عصـــياني

مـــا ذاك إلاّ أن ســـلطان الهـــوى ... وبـــه قـــوينَ أعـــزُّ مـــن ســـلطاني

انظر : الذخيرة ، مجلد (١) ، قسم (١) ، ص٤٧ .

((ولم يكن ذلك المسلك خيالاً لشاعر ، أو تزويقاً في الكلام ، إنَّما كان حقيقةً ملموسة ، عاشها النَّاسُ وقدَّروها قدرها))[1].

يقول ابن خاتِمة مسترحماً من يحبُّها[2]:

ألا فــارحموا ذا عــزَّةٍ ذلَّ للــهوى وما كان يرضــى قــطُّ بالــذّلِ لــولاهُ

((ألا يعني ذلك في ضوء هذه المقابلة المدهشة أن الألم والتذلُّل يشرِّفان الرَّجل المحبّ))[3].

إنَّه عزُّ الهوى الذي جمع تحت ظلال قوَّته الطَّاغية وسطوته الجبَّارة ، بين خواصٍ وعوامّ ، وبدو وحضر ، فأحسَّ الشاعر الأندلسي ما أحسَّه جدُّه جميل حين قال[4]:

خليليَّ فيمــا عشــتما هــل رأيتمــا قتيلاً بكــى مــن حــبٌ قاتِلــهِ قبلــي

أفي أمّ عمــرو تعــذِلاني هُــديتما وقد تَيَّمتْ قلبي وهامَ بــهــا عقلــي

أبيــتُ مــع الهُــلاَّكِ ضــيفاً لأهلــها وأهلي قريــبٌ موســعونَ ذوو فضــلِ

لقد وعى الأندلسيُّون هذا المعنى القادم من خيام البدو في الصحراء ، فاتَّسعت له قصور الملوك والأمراء ، إذ يقول يوسُف الثَّالث[5]:

أصــبحتُ مقتــولاً بســيف صــدودِه وأقــولُ لا شُــلَّت يمــينُ القاتِــلِ

فليس الأمر متكلَّفاً ، لأنَّ الشَّاعر ملك ، فأمور الشِّعر والقلوب ، لا تعرف طبقيَّةً وحدوداً ، فالمحبُّ الشَّاعر ملكاً أو غير ملك ، لا يجدُ غضاضةً في البوح وإظهار كلِّ ما يتوسَّلُ به للمحبوبة من دلائل الذُّل ، والخشوع والخضوع ، أحبَّه لحبِّه لها ، وأصبح بذلك مملوكاً لديها .

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، ص٥٢٠ .

(٢) ديوان ابن خاتمة ، ص٧٠ .

(٣) الشِّعر الأندلسيّ في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ص٣٧٣ .

(٤) ديوان جميل بثينة ، ص١٦٩ .

(٥) ديوان يوسف الثالث ، ص٩٩ .

والوفاء للمحبوبةِ من أهمِّ معالم الحبِّ العذريّ وشيم المحبِّين ، وهي سنَّةٌ في هذا الحبّ ، اتَّبعها الخُلصاءُ من أوليائِه ، يقول ابن حزم ((ومن حميد الغرائز ، وكريم الشّيم ، وفاضل الأخلاق في الحبّ وغيره ، الوفاء ، وإنَّه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل ، وشرف العنصر)) [١] ، يقول ابن زيدون في ذلك[٢] :

لم نعتقدْ بعدَكمُ إلاَّ الوفاءَ لكم ... رأياً ولم نتقلَّدْ غيرَه دِينَا

فجعل وفاءَه لها ، بمعنى الدِّين في قلبه ، وهذا من أتمِّ صفات النُّبل وحفظِ الودّ ، ولذا عدَّهُ ابن زُمْرُك من سجيَّةِ الأحرار ، إذ يقول[٣] :

هل تُبلغ الحاجاتِ إن حُمِّلتها ... إنَّ الوفاءَ سجيَّةُ الأحرارِ

وهي قصيدةٌ حمَّلها كثيراً من الصُّور البدويَّة ، والمعاني العذريَّة ، فمهَّد لهذا المعنى بأن ذكر دار الهوى : (حياك يا دار الهوى) [٤] وسمَّاها في بيتٍ آخر (دار الصبابةِ والهوى) [٥] ، وذكر الشَّوق الذي تذكيه هذه الدّار[٦] :

إيهٍ وإن أذكيتِ نارَ صبابتي ... وقدحتِ زِندَ الشَّوقِ بالتذكارِ

ثمَّ حشد صورة الأظعان ، وحنينها إلى نجد ، وبرق الحمى ، وطيف الكرى ، والخيام[٧] ، كلَّ ما سبق وغيره ، ليصل إلى تمثُّل لقوة معنى هذا الهوى العذريّ في نفسه ، والذي جعل الوفاء له من سجيَّة الأحرار ، وفي مثل هذا الحشد للمعاني العذريَّة ، يذكر ابن فركون (ت : سنة ٨٢٠هـ) أنَّه حافظٌ للوداد ، وإن نأت الديار ، وبعدت المحبوبة يقول[٨] :

---

(١) طوق الحمامة ، ابن حزم ، ص٨٥ .

(٢) ديوان ابن زيدون ، ص١٤٢ .

(٣) ديوان ابن زمرك ، ص٤١٤ .

(٤،٥،٦) المصدر السَّابق ، ص٤١٣ .

(٧) المصدر السَّابق ، ص٤١٣ ، ٤١٤ .

(٨) ديوان ابن فركون ، تحقيق : محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديميّة الملك المغربيّة ، المغرب ، ط . الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م ، ص٢٦٧ .

وإنّي على حفظِ الوِدادِ وإن نَأتْ بِي الدَّارُ أَو شطَّتْ بسلمى ركابُها

من قصيدة بدويَّةٍ أوَّلها[1] :

سلِ البانَ عنها أينَ بانَ ركابُها ولِمْ رُفِعَتْ فوقَ المطيِّ قبابُها

وفيها يذكر (الحادي)[2] و (عرف الصَّبا)[3] و (أطلال العذيب)[4] و (الخيام)[5] ، وسؤال البان عن ركاب الأحبّة من معدن سؤال الطلل عن هذه الرّكاب كما جاء في قول امرئ القيس[6] :

ألا عِمْ صباحاً أيُّها الرَّبعُ وانطِقِ وحدِّث حديثَ الرّكبِ إن شئتَ واصدقِ

وابنُ فركون يذكر في هذه القصيدة أنَّ قُربَ الدار لا ينفع إذا كانت هذه المحبوبة محجوبةً يمنع اقترابه منها إذ يقول[7] :

وهل نافعي بعد النَّوى قربُ دارها إذا كان مسدولاً عليها حجابُها

ممَّا يذكِّرنا بقول المجنون[8] :

وقد زعموا أن المحبَّ إذا دَنَا يملُّ وأنَّ النَّأيَ يُشفي من الوجدِ

بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا على أنَّ قربَ الدَّار خيرٌ من البعدِ

على أنَّ قربَ الدَّارِ ليس بنافعٍ إذا كانَ من تهواهُ ليس بذي وُدِّ

إنَّ الحفاظ على الودّ ، والبقاء على العهد ، من سجايا المحبِّ المخلص ، ومن شيم العاشق الصَّادق ، وهي الشِّيم التي طالما تغنّى بها الشعراء العذريّون ورددها الأندلسيُّون ، يقول ابنُ الخَطِيب[9] :

(١،٢،٣) ديوان ابن فركون ، ص٣٣٨ .

(٤) المصدر السَّابق ، ص٣٣٩ .

(٥) المصدر السَّابق ، ص٣٣٨ .

(٦) ديوان امرئ القيس ، ص١٢٩ .

(٧) ديوان ابن فركون ، ص٣٣٨ .

(٨) ديوان مجنون ليلى ، ص١٣٦ .

(٩) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١/١٥٦ .

ألم تعلمـــوا أنَّ الوفـــاءَ ســـجيّتي إذا شـــحطت داريْ وشـــطّ رِكـــابي

ولسان الدين بن الخطيب يقول في قصيدة أُخرى مُقسماً على بقائه على العهد[1] :

قالت : تناسيتَ عهدَ الحبِّ قلـتُ لهـا لا والّذي خلـقَ الإنسـانَ مـن عَلَـقِ
ما كان قطُّ تناسي العهدِ مـن شِـيمي ولا السلوُّ عن الأحبـابِ مـن خُلُقـي
ولا ترحَّلْتُ عـن مغنـاكِ مـن ملـلٍ قد يُتركُ المـاءُ يومـاً خِيفـةَ الشَّـرقِ

وقوله (قد يترك الماء . . .) فيه تحليل دقيق لسرّ ارتحال المحبّ عن مغاني صاحبته مع حبِّه لها ، وهو أنَّ هذه المغاني له كالماء ، وقد يُترك الماء خيفة الشَّرق .

وفي معنى أنَّ الوفاء سجيَّةٌ وطبيعةٌ في نفس المحبِّ المخلص ، يقول يوسُف الثالث[2] :

وفـــائي وَودِّي مـــا علمـــتِ طبيعـــةٌ فلا تخشَـــينْ صَـــدًّا ولا تـــرهبَنْ بُعْـــدا

ويقول أيضاً مادحاً نفسه بهذه الصفة ، في زمنٍ عزَّت فيه[3] :

فيـــا لـــك صـــبًّا مـــا أشـــدَّ وفـــاءهُ علـــى زمـــنٍ فيـــه الوفـــاءُ قليـــلُ

أما ابن زُمرك فيقول[4] :

أبـــثّكُمْ إنّـــي علـــى النَّـــأيِ حـــافظٌ ذمـــامَ الهـــوى لـــو تحفظَـــونَ ذِمَامِيَـــا

وجملة (لو تحفظون ذماميا) جملة تمنٍّ ، أخبرهم أنه حافظٌ للعهد غير مضيِّع ، ثمَّ تمنّى أن يحفظوا عهده ، والتمنِّي يأتي للمستحيل ، أو المستبعد ، فأعطى بذلك معنى أن حفظهم لعهده من المستحيل أو المستبعد ، ومع ذلك فهو حافظٌ لعهدهم .

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٦٩٠ .
(٢) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص٣٢ .
(٣) المصدر السَّابق ، ص١٩٣ .
(٤) ديوان ابن زمرك ، ص٥١٥ .

يقول ابن زمرك من قصيدة أخرى ذاكراً هذا المعنى العذري[١] :

لئن نَسِيتُ تلكَ العهودَ أحبَّتي ... فقلبيَ عهدُ العامريَّةِ ما نسي

ويقول ابن زيدون مؤكِّداً أيضاً هذا المعنى وهو البقاء على العهد حتّى مع غدرِ المحبوبَة[٢] :

هل غيرَ أنْ محضَ الوفاءَ لغادرٍ ... أو غيرَ أن صَدقَ الوصالَ لقاطعٍ؟

لم يهوَ من لم يُمسِ قرَّة عينِه ... سهرُ الصبابةِ في خليٍّ هاجعِ

ويردِّد هذا المعنى في قصيدة أخرى نحسُّ فيها لوعة الألمِ، وعذاب الفراق[٣] :

يا بائعاً حَظَّه منِّي، ولو بُذِلَتْ ... لي الحياةُ بحظِّي منه لم أَبِعِ

يكفيكَ أنّكَ إن حمَّلت قلبي ما ... لم تستطعهُ قلوبُ الناسِ يستطعِ

وهي مرتبةٌ في الوفاء، ذكرها ابن حزم في طوق الحمامة، ومَدَح من يكون على هذا الخلق في الوفاء، وحفظ الذِّمام إذ يقول ((ثمَّ مرتبةٌ ثانية، وهو الوفاء لمن غدر وهي للمحبّ دون المحبوب، وليس للمحبوب ها هنا طريقٌ ولا يلزمه ذلك، وهي خُطةٌ لا يطيقها إلاَّ جلدٌ قويٌّ، واسعُ الصَّدرِ، حرُّ النفس، عظيم الحلم، جليل الصَّبرِ، حصيف العقل، ماجد الخُلق، سالمُ النيَّةِ))[٤]، وقد كان من شروط الوفاء على المحبين كما ذكر ابن حزم، حفظ السِّر، وعدم إذاعته إذ يقول: ((وللوفاءِ شروطٌ على المحبّين لازمة، فأوَّلها: يحفظ عهد محبوبه، ويرعى غيبته، وتستوي علانيتُه، وسريرتُه، ويطوي سرَّه وينشر خبره، ويغطي على عيوبه، ويحسن أفعاله، ويتغافل عمَّا يقع منه على سبيل الهفوة، ويرضى بما حمله، ولا يكثر عليه بما ينفر منه، وألا يكون طُلعة ثؤوباً، ولا ملَّةً خروقاً ...))[٥].

---

(١) ديوان ابن زمرك، ص٤٣٢ .

(٢) ديوان ابن زيدون، ص٤٠٠ .

(٣) المصدر السابق، ص١٧٠ .

(٤) طوق الحمامة، ابن حزم، ص٨٦ .

(٥) المصدر السَّابق، ص٨٩ .

يقول ابن زيدون في هذا المعنى[1] :

بيني وبينك ما لو شئتِ لم يَضِعِ ... سرٌّ إذا ذاعت الأسرارُ لم يُذَعِ

أمَّا ابن حِمْدِيس ، فيذكُر أنَّه حفظ الهوى وكتم السّر ، ولكن أذاعته دمُوعه إذ يقول[2] :

لا تتَّهمني في الوفاءِ فإنَّني ... كتَّمتُ سرَّكِ والدّموعُ تذيُعهُ

نقلَ الهوى قلبي إلى عيني التي ... منها تفجَّر بالبكا ينبوعُه

أبكيتني فأذعتُ سرّكِ مُكْرَها ... فعلامَ تعذلني وأنتَ تذيعُه

لقد تغنَّى الشعراء الأندلسيُّون ـ كالعذريين ـ كثيراً بهذه الخصلة الخلقيَّة التي تسمو بالحبِّ إلى أعلى درجاته ، وأنشدوا في هذا الشِّعر معاني الحبّ والإخلاص ، لمحبوبةٍ وفت أو غدرت ، وصلت أو قطعت ، ولذا كان هذا الحبُّ العذريّ متعالياً على شهوة الانتقام ممَّن غدر ، أو نسيان من قطع ، فارتفع بالمستوى الإنساني في الشِّعر إلى درجاتٍ أعلى وأنبل .

ومن معالم هذا الحبّ والعشق العذريّ أن يكثر شعراؤه من الشَّكوى : شكوى الألم الذي يتجرعونه لفراق المحبوبة وبُعدها ، شكوى من الصَّد والهجر ، شكوى من العُذَّال والوشاة ، شكوى من قسوة المحبوبة أو دلالها ، شكوى من تجنيِّها وعدم وفائها ، وما إلى ذلك ، ممَّا يُعدُّ من توابِع الهوى وزوابعه ، التي تعصف بكيان هذا الشَّاعر ، وتزلزِل نفسَه ، ((إنَّ العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمُّونه ، ليس من المسائِل الهزليّة ، لأنَّ الشِّعر الذي هو وحي النفوس ، وجمالُ الإدراك الإنساني ، أكثر ما يكونُ ظهوراً في التعبير عن الحبِّ ، ووصف هذا الضعف الإنساني الذي نسميّه عشقاً ، فإنَّ العشق إدراك أكبر مظاهر الجمال ومن لم يفتح قلبه يوماً ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم يرَ غير ظواهرها ، ولم يتسَّرب إلى نفسه بصيصُ ضوءٍ من جمال الكون))[3] .

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص١٦٩ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٤ .

(٣) بلاغة العرب في الأندلس ، دكتور أحمد ضيف ، ص٩١ .

رُوي عن الشَّعبي قوله[1] :

إذا أنت لم تعشقْ ولم تدرِ ما الهوى ... فأنتَ وعَيرٌ بالفلاةِ سواءُ

لأنَّ الحبَّ يسمو بصاحبه ، ويرتفع بالعاشق مراتب في الإنسانيَّة ، تجعلُ قلبه أرقّ ، وروحه أكثر شفافية ، ولذا كان وقعُ الألم على هذه النفس الجيَّاشةِ بالعواطف أشدَّ منه على غيرها ، وبخاصّةٍ إذا كان العذاب ممَّن يحبّ .

يقول ابن زيدون في هذا المعنى ، ذاكراً أنَّ في عينيّ محبوبته صحَّته أو سُقمه ، وأنَّ هذه المحبوبة تُسخِطُه ويرضى ، وتظلمه ولا يشكو ، في مقابلاتٍ تشي بمقدار قوّة الحبِّ في قلبه دونها[2]:

سأحبُّ أعدائي لأنَّكِ منهم ... يا من يُصحُّ بمقلتيه ويُسقَم

أصبحتَ تُسخطني فأمنحكَ الرِّضا ... مَحْضاً وتظلمني فلا أتظلَّم

يا من تألَّفَ ليلُه ونهارُه ... فالحسنُ بينهما مضيءٌ مظلمُ

قد كانَ في شكوى الصبابةِ راحةٌ ... لو أنَّني أشكو إلى من يرحمُ

وفي مثل هذه المقابلاتِ بين قوَّة الحبِّ لدى الشَّاعر ومقاساته دون من يحب يقول ابن حِمْدِيس[3] :

شكوتُ إليها لوعةَ الحبِّ فانثنتْ ... تقول لتربيْها وما لوعةُ الحبِّ؟

فقيل عذابٌ لو أحطتِ بعلمه ... لجُدْتِ على الصَّادي بماءِ اللَّمى العذبِ

وهي مقابلةٌ في المشاعر ، قريبة من قول المجنون[4] :

أحبُّك يا ليلى محبَّةَ عاشقٍ ... عليه جميعُ المصعباتِ تهونُ

---

(١) ذمُّ الهوى ، ابن الجوزي ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، مراجعة محمد الغزالي ، دار الكتب الإسلاميَّة ، القاهرة ، ط . الأولى ، ١٣٨١هـ ، ١٩٦٢م ، ص٣٠٦ .

(٢) ديوان ابن زيدون ، ص١٨١ .

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص١٨ .

(٤) ديوان مجنون ليلى ، ص٢٣٤ .

أحبُّك حبّاً لو تحبين مثلَهُ	أصابكِ من وجدٍ عليَّ جنونُ

لقد أكثر الشُّعراء من وصف حنين القلوب ، ونفحاتِ النفوس ، ونفثات العشق والهوى ، وأودعوا شعرهم المصدور كلَّ ما يُحسُّونهُ من آلامٍ ، وشكوى من تباريح الهوى والوجد ، وجعلوه مستودعاً للأسرار ، ومهبطاً لوحي العشق ، ومقصداً لكلِّ من عنَّ له أن يستلهم من سيل الحبِّ المغرق ، ويستمطره لقلبٍ عرف الهوى ، ولم يعرف كيف يعبِّر عنه ((حتّى يكون للشَّاعر فضيلة الشِّعر))[1]، فابنُ الخطيب يقول رافعاً شكوى محبٍّ متذلِّل إلى ربٍّ كريم[2]:

أبوحُ بما أُخفي وليسَ بنافعي	ولكنَّها شكوى إلى اللهِ تُرفعُ
أمالكَ رِقّي كم أرائي في الهوى	أذلُّ كما شاءَ الغرامُ وأخضعُ

أمَّا ابن درَّاج فيستجير بمحبوبته من لوعةِ الهجر ، ويرى أنَّه لولا ضلوعُ قلبه التي تحبسه لمضى هذا القلبُ في أثرها إذ يقول[3] :

لولا الضُّلوعُ لظَّلَ القلبُ نحوكُمُ	ضعي بعيشكِ فوقَ القلب يُمناكِ
أصليتِني لوعةَ الهجرانِ ظالمةً	رُحماكِ من لوعةِ الهجرانِ رُحماكِ

لقد استرحم الشَّاعر من يحبّ ، وأحسَّ لذَّة هذا الاسترحام لأنَّه توجَّه به لمن يحبُّ ، يقول ابن فُركون في هذا المعنى[4] :

إنَّ التي شغفَ الفؤادَ هواهَا	قَضَت اللَّيالي أن تُطيلَ نَواهَا
عجباً لها إذْ أتلَفَتْ ببعادها	قلباً مشُوْقاً لم يَزَلْ مثواهَا
يا ليتها رحِمَتْ مُعنًّى مغرماً	لم يدرِ ما معنى الهوى لولاهَا

وقد أكثر الشُّعراء من وصف الكمد والحزن الذي يعتري العاشق لغياب من يحبّ وعدم رؤيته ، حتّى تضيق عليه الأرضُ بما رحُبت . يقول ابن فُركون[5]:

---

(١) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، ص١٣٦ .
(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١/٦٦٥ .
(٣) ديوان ابن درّاج القسطلي ، ص٧٠٧ .
(٤) ديوان ابن فركون ، ص٢٦٧ .
(٥) المصدر السَّابق ، ص٢٦٠ .

يا من تـمـلَّكـنـي حبًّا أيجمُل بـي ... صـبرٌ وعـيني علـى مـرآكَ لا تقـعُ
تضـيقُ في عـينيَ الـدُّنيا إذا أنـا لا ... أراكَ فيهـا ورحـبُ الأرضِ متَّسـعُ

ووصف الشُّعراء أيضاً نيران الأسى واللوعة التي يُخلِّفُها بعدُ من يحبُّون ، حتَّى أنَّ ابن الأبـَّار يجعل إطفاء هذه النيران يستعصي على الطُّوفان ، يقول[1]:

غلبـتْ علـيَّ لبُعـدكم أشْـجاني ... وجفا الكـرى مـن بَعـدِكُم أجْفـاني
وتضـرَّمتْ بـين الجـوانحِ لوعـةٌ ... إطفاؤُهـا أعيـا علـى الطُّوفـانِ

ويقول ابن الأبـَّار من قصيدةٍ أُخرى جاعلاً من بكائِه في إثر من يحبُّ سبباً للقضاءِ عليه ، حتّى شقَّ جيوبه ، وهذا من علامات الجنون ، ((رُوي عن الأصمعي أنه قال : لقد أكثر النَّاسُ في العشق ، فما سمعتُ أوجزَ ولا أجملَ من قول بعض نساء العرب وسُئلت عن العشق؟ فقالت : ذلٌّ وجنون)) [2] ، يقول ابن الأبـَّار[3] :

جفونٌ هَمتَ مـذغابَ عنـها حبيبُهـا ... ونفسٌ بـهـا للشَّـوقِ نـارٌ تـذيبُها
تيقَّنـتُ إذ ودَّعتُهـا أنَّ مهجـتي ... سَيَقْضِـي عليهـا شـوقُها ونحيبُهـا
شققتُ جيـوبِي يـوم بانـت وطالمـا ... أطـالَ عـذابي مـا طَوتْـه جيوبُهـا
وللحـبِّ حـالاتٌ تمـرُّ خطوبُهـا ... إذا قُرِنـتْ بـالبينِ تحلُـو خطوبُهـا

لقد مضى الشُّعراء الأندلسيُّون على سُنَن العذريين في وصف تباريح الهوى والعشق ، وربط آلام الفراق ومكابدتِه بمعنى الموتِ ، والثكل ، فأبو بكر الطرطوشي يُرجّح ألم الفراق على ألم الثكل ، يقول[4] :

يقولـونَ ثكلـى ومـن لم يـذُقْ ... فـراق الأحبَّـة لم يثكُـلِ
لقـد جـرَّعتني ليـالي الفـراقِ ... كؤوسـاً أمـرَّ مـن الحنظـلِ

---

(١) ديوان ابن الأبـَّار ، ص٣٤٨ .
(٢) ذمُّ الهوى ، ابن الجوزي ، ص٢٩٢ .
(٣) الحدائق والجنان ، الجيّاني ، ص١٠٨ .
(٤) نفح الطيب ، المقّري ، ٢/٨٦ .

ويجعل عبد الله بن عبد العزيز الأموي ، من بقائِه على قيد الحياة بعد فراقهم إجحافاً بحقِّ الحبِّ وعدم إنصافٍ له ، يقول[1] :

سُقيا لهم من ظاعنين حَسِبْتُهم ... وسْطَ الهوادجِ لؤلؤاً مكنُونَا
لو كنتُ أُنصفُهمْ عشيَّةَ ودَّعوا ... ما عشتُ بعد نوى الأحبَّةِ حينَا

أمَّا ابن حمديس فيسألُ محبوبتَه ويستعطفُها أن تفديه بوصلِها من موتٍ محقَّق ، يقول[2] :

هل أنتِ فاديةٌ لفؤادٍ عميدِ ... من لوعةٍ في الصَّدرِ ذاتِ وَقودِ
أم أنتِ في الفتكاتِ لا تخشينَ في ... قتلِ العبادِ عقوبةَ المعبودِ

ويُسهب الشُّعراء الأندلسيُّون في ترديد هذا المعنى إذ يعادلون بين الفراق والموت ، فيقول ابن الأبَّار[3] :

ويهونُ ذلكَ للفراقِ وطعمُه ... إنَّ الفراقَ هو الحِمامُ الثَّاني

ويقول إدريسُ بن الهيثم أيضاً[4] :

فقدتُكِ فقداني لنفسي فلو أتى ... عليها حِمامٌ ما وجدتُ له فَقْدا

وفي مثل هذا المعنى - معنى فقد المحبوبة المعادل لفقدان الرُّوح - يذكُر أحمدُ بن عبد الملك بن مروان أنَّه هلك مذ تولّى عنه من يحب[5]:

لقد أودَى تذكُّره بجسمي ... ولستُ أشكُّ أنَّ النفسَ تُودي
تولّى الصبرُ عنّي مذ تولّى ... وعاوَدني من الأحزانِ عِيدي

لقد عادل الشُّعراء بين مرارة الفقدِ والهجر ووقع الموت ، لأنَّهم أحسُّوا في فقد من يحبُّون فقداً للنَّفس التي هويت وعشقت ، وربطت حياتها بوجود هذه المحبوبة ، حتَّى إذا غابت أو هجرت ، استشعر الشَّاعر وحشَةَ الكون من بعدها ، فندب نفسه ، وشكى مرارة الهجرِ ولوعته ، يقول ابن حزمٍ عن

(١) الحدائق والجنان ، الجيَّاني ، ص١١٠ .
(٢) ديوان ابن حمديس ، ص١٢٩ .
(٣) ديوان ابن الأبَّار ، ص٣٤٨ .
(٤) الحدائق والجنان ، الجيَّاني ، ص٨٥ .
(٥) المصدر السَّابق ، ص٨١ .

الهجر ((وهنا ضلَّت الأساطير ، ونفدت الحيل ، وعظم البلاء ، وهو الذي خلَّى العقول ذواهل ، فمن دُهيَ بهذه الدَّاهية فليتصدَّ لمحبوب محبوبه ، وليتعمَّد ما يعرف أنَّه يستحسنُه)) [1] ، يصفُ ابن زيدون ما يجده من عذابِ الهجر المميت ، فيقول[2] :

وما كنتُ إذ ملَّكْتُكِ القلبَ عالماً ... بأنّي عن حتفي بكفِّي باحثُ
فديتك إنَّ الشَّوقَ لي مُذْ هجرتني ... مميتٌ فهل لي من وصالكِ باعثُ

وقد ذكر ابن زيدون هذا المعنى في قصيدة أُخرى متسائلاً عن جرمه الذي اقترفه ليكون الهجر والجفاءُ جزاءً له[3] :

أأُجفَى بلا جُرمٍ وأُقصى بلا ذنبِ ... سوى أنني محضُ الهوى صادقُ الحبِّ
أُغاديك بالشَّكوى فأُضحي على القلى ... وأرجوكِ للعُتْبى فأظفرُ بالعَتْبِ

ولقسوة الهجر على النَّفس ، أكثر الشعراءُ التذلُّل لمن يحبُّون ، واسترحامهنَّ في العودة ، يقول ابن فُركون[4] :

ألا عطفةٌ بعد التباعدِ والنَّوى ... ألا عدةٌ بالوصلِ يوماً بلا مَطْلِ

وإذا كان الشُّعراء قد وصفوا مرارة الفراق ولوعته ، واسترحموا من يحبُّون ، فإنَّهم أيضاً قد شكوا من ألمِ الخيانةِ ، وقلَّة الوفاء ، وعدم البقاء على العهد ، يقول أبو الصَّلت أُميَّة بن عبد العزيز[5] :

فلا واللهِ ما حُفظت عهودٌ ... كما ضمنُوا ولا قُضيت ديونُ
ولو حَكَم الهوى يوماً بعدلٍ ... لأنصفَ من يفي ممَّن يخونُ

ولم يَجِد الشُّعراء الأندلسيُّون عن سابقيهم العذريين في وصف الشَّوق للمحبوبة ، وتمنّي اللِّقاء ، واشتكوا من هذا الشَّوق ، وتباريحه ، لأنَّه بلا طائِل ،

---

(١) طوق الحمامة ، ابن حزم ، ص٨٣ .
(٢) ديوان ابن زيدون ، ص١٨٤ .
(٣) المصدر السَّابق ، ص١٨٢ .
(٤) ديوان ابن فُركون ، ص٢٦٥ .
(٥) نفح الطِّيب ، المقّري ، ٤٨٣/٣ .

ولذا وصفه ابن زيدون بأنه أقوى من شوقِ مقتولٍ من العطش إلى قطرةٍ من ماء المطر[1] :

وما شوقُ مقتولِ الجوانحِ بالصَّدى إلى نُطفةٍ زرقاءَ أضمرها وَقْطُ[2]
بأبرحَ من شوقي إليكم ودونَ ما أديرُ المنى عنه القتادةُ[3] والخَرْطُ[4]

ولم يكن للسلوِّ مكانٌ في حياةِ المحبِّ الصادق ، واستعصى عليه أن يحصُل عليه مع رغبته فيه لأنَّ الشَّوق يحول بينه وهذه الرَّغبة ، ولذا اشتكى الشُّعراء من عدم قدرتهم على النسيان ، إذ كُلَّما عنَّ السلوُّ على قلبِ عاشقٍ اعترضه الشَّوق ، فهو يدافع في هذا القلب مالا يستطيع أن يدافعه وهو الحبّ ، وما لا يستطيع أن يفهمه وهو أن يرغب في نسيان من يحب ، وفي هذا المعنى يقول ابن زيدون[5] :

خليليَّ مالي كُلَّما رُمْتُ سَلوةً تعَرَّضَ شوقٌ دونَ ذلكَ حائلُ
أراحُ إذا راحَ النَّسيم شآمياً كأنَّ شَمُولاً ما تديرُ الشَّمائلُ

وإذا كان للفراق والهجر على نفس العاشق وقعٌ يشبه الموت ، واستحال السلُوُّ لأنَّه لا يستطيعه ، فقد أكثر الشُّعراء في هذا النسيب العذري العفيف ، من الاستعاضة عن وجود المحبوبة الماديّ ، إلى استحضار (طيف الخيال) ، فأسهبوا كغيرهم في ذكر هذا الطِّيف وتمثُّله ووصفه ، ووصفوا كيف قطع الطريق دون أن يدري به أحد ، وكيف جاد طيف المحبوبة بالوصل ، على خلافها ، ممَّا جعل في استحضار صورة الطيف في هذا النسيب العذري نوعاً من التعويض عن الحرمان عن وجود المحبوبة الحسِّي ، فيعمد الشَّاعر أحياناً إلى هذه الحيلةِ الخياليَّة ، التي لا تبعدُ بالعفَّةِ عن معناها ، ولكنَّها تطفيء شيئاً

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص٢٨٦ .
(٢) وقط : حفرة في الصخر يجتمع فيها ماء المطر ، اللِّسان مادة (وقط) .
(٣) القتاد : شجر ذو شوك أمثال الإبر ، اللِّسان ، مادة (قتد) .
(٤) الخرط : قَشرٌ وانتزاع الورق عن الشجر وجذبه ، اللِّسان مادة (خرط) وفي المثل (دون ذلك خرط القتاد) "يضرب للأمر دونه مانع" مجمع الأمثال ، الميداني ، ١/٢٦٥.
(٥) ديوان ابن زيدون ، ص٣٩١ .

من نار الشوق إلى من أحبُّوا ((ومما يُمدح به أنّه زيارةٌ من غير وعدٍ يُخشى مَطْلُهُ، ويُخاف لبسه وفَوتُه، واللّذة التي لم تُحتسب، ولم تُرتقب يتضاعفُ بها الالتذاذ والاستمتاع، وأنّه وصلٌ من قاطع، وزيارةٌ من هاجر، وعطاءٌ من مانع، وبذلٌ من ضنين، وجودٌ من بخيل، وللشيء بعد ضدّه من النفوس موقعٌ معروفٌ غيرُ مجهول))[1].

وقد تكون الصورة الملازمة للشّاعر ليست صورة طيف يقطع الأماكن ويجوب القفار ليلقاه، وإنّما هي صورة أبدعتها خواطرُ الشّاعر وصنعها هو لنفسه لتكون معه أبداً، وذلك كقول الغزال[2]:

ولا والهوى ما الإلفُ زارَ على النّوى ... يجوبُ إليّ الليلَ في البلدِ القفرِ
ولكنّه طيفٌ أقامَ مثالَهُ ... لعيني في نومي خواطرُ من فكري

وللرّغبةِ في استزارةِ الطيف، رغب الشُّعراء في النّوم، يقول ابن خفاجة[3]:

هل كانَ عندكِ أنَّ عندي لوعةً ... ينبُو لها طرفُ السِّنان الأزرقِ
طالت مراقبةُ الخيالِ ودونَهُ ... رعيُ الدُّجى فمتى أنامُ فنلتقي
ما بين نحرٍ بالدُّموعِ مقلّدٍ ... فرَحَاً وجيدٍ بالعناقِ مطوَّقِ

ويقول في قصيدة أُخرى إنّه لم يطمع في النّومِ إلاَّ رَغبةً في هذا الخيال الزّائر[4]:

ولئن راودْتُ مِنْ سِنةٍ ... لَبِمَا أرتادُ من حُلُمِ
وخيالٍ لو ترى خَبَبَا ... ما بصدرِ الصّبِّ من ضَرَمِ
فسقى اللهُ مضاجِعَنا ... بينَ طَلحِ الجزعِ والسَّلَمِ

---

(١) طيف الخيال، الشّريف المرتضي، تحقيق: دكتور محمد حسن أبو ناجي، دار التربية، المدينة المنوّرة، ص٢٧.
(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني، ص١٦٣.
(٣) ديوان ابن خفاجة، ص١٥١.
(٤) المصدر السابق، ص١٠٧.

أمَّا لسان الدين بن الخطيب فيأتي بمعنى آخر ، وهو أنَّ الطيفَ زراه دون نوم ، لأنَّه عاشق ، ولذا قام الخيال ، مقام الحلم في تمثُّل الطيفِ عنده[1] :

أهـــلاً بطيفـــكَ زائـــراً أو عائـــداً تفـــديكَ نفســـي غائبـــاً أو شـــاهدَا
يا من علـى طيـفِ الخيـالِ أحَـالني أتظـنُّ جَفـني مثـل جفنـكَ رَاقـدَا
مـــا نمـــتُ لكـــنَّ الخيـــالَ يُلـــمُّ بي فيجلُّـــه طرفِـــي فيطـــرقُ سَـــاجِدَا

وقوله (فيجلُّه طرفي فيطرقُ ساجدا) من المعاني التخيليَّة ، لأنَّه علَّل نومه وإطباق جفونه بإجلاله للطيف ، وأنَّه لمّا رآه خرَّ هذا الطرف ساجداً ، ويأتي هذا المعنى ـ معنى إقامة الخيال مقام الحلم في تمثُّل الطيف ـ عند ابن حمديس يقول[2] :

قـــالوا صَـــبًا يـــا مـــن رَأى مســـتهام حِجَـــاه[3] كهـــلٌ وهـــواهُ غُـــلامُ
لعلَّـــهُ صـــادَ ولم يَعلَمُـــوا رئمـــاً حـــلالٌ صـــيدُه لا حـــرام
أو زارَه طيـــفٌ خفـــيُّ الهـــوى يطرُقُـــه في الـــوهمِ لا في المنـــام

وابن حمديس يذكر المعنى الذي أورده الشريف المرتضى في أنَّه ((من مليح مدحه وغريبه ، أنَّه لقاءٌ واجتماعٌ لا يشعر الرُّقباءُ بهما ، ولا يُخشى منعٌ منهما ، ولا إطلاعٌ عليهما ، والتهمةٌ بهما زائلة ، والريبةُ عليهما عادلة ، وأنَّه تمتُّع ولكن ذا لا يتعلَّق بهما تجهيم ، ولا يدنو إليهما تأثيم ، ولا عيب فيهما ، ولا عار ، وقد قاما مقاماً فيه ذلك أجمع))[4]. وابن حمديس يكرِّر هذا المعنى في قوله أيضاً[5] :

رعى من أخي الوجـدِ طيـفٌ ذِمَامَـا فحلَّـلَ مـن وصـلِ سَـلمى حرَامَـا
تحمَّـــلَ منـــها بريَّـــا العَـــبيرِ ومـــن أرضِـــها بـــأريجِ الخزامـــى

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٦٢/١ .
(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٤٥٩ .
(٣) الحجى : العقل والفطنة ، اللِّسان : مادة (حجا) .
(٤) طيف الخيال ، الشَّريف المرتضي ، ص٢٧ .
(٥) ديوان ابن حمديس ، ص٤٥٢ .

ولذا أكثر الشُّعراءُ من تمنّي زيارة الطيف لأنَّ فيه عوضاً عن البُعد إذ يقول ابن خفاجة[١] :

يا حبّذا والطيفُ ضيفٌ طارقٌ طيفٌ على شَحَطٍ أجدَّ مزارا
تلوي الشمالُ به قضيباً ربَّما عاطى بسوسَانٍ هناك عَرارَا

ويقول أيضاً لسان الدين بن الخطيب[٢] :

أما وخيالٍ في المنام يزورُ وإن كان عندي أنَّ ذلك زورُ
لقد ضِقْتُ ذرعاً بالنَّوى بعدَ بُعدكم على أنَّني للنَّائباتِ صبورُ

كما أنَّهم شكروا للطَّيف زيارته ، لأنَّه وصلٌ من هاجر وفي هذا المعنى يقول ابن خفاجة[٣] :

وضيفِ طيفٍ أمَّ من هاجرٍ باتَ به المشكوُّ مشكورا

ولذا فقد تمنُّوا زيارة الطيف ، لأنَّ فيه كما ذكرنا تعويضاً بالخيال عن واقع الحقيقة ((أليس من الأفضل أن يحلَّ اتّحاد الأرواح من خلال الفكر حال اليقظة وفي الأحلام أثناء النَّوم محلَّ الصلة الحسيَّة؟))[٤].

يقول ابن خفاجة ذاكراً ما كان من وصلٍ جاد به طيف من يحبُّ[٥] :

ورداءُ ليلٍ باتَ فيه معانقِي طيفٌ ألمَّ لظبيةِ الوعْسَاءِ[٦]
فجمعتُ بين رُضابه وشَرَابِهِ وشربتُ من ريقٍ ومن صَهْباءِ
ولثمتُ في ظلماءِ ليلةِ وفرةٍ[٧] شفقاً هناك لوجنةٍ حمراءِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١١٣ .
(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١/٣٩١ .
(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٤٧ .
(٤) الشِّعر الأندلسيّ في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ص٣٧١ .
(٥) ديوان ابن خفاجة ، ص١٥٣ .
(٦) الوعساء : الأرضُ اللينة ذاتُ الرَّمل ، اللِّسان : مادة (وعس) .
(٧) الوفرة : الشَّعر المجتمع على الرأس ، وقيل : ما سال على الأذنين من الشَّعر ، اللِّسان : مادة (وفر) .

ويقولُ ابن هانئ في هذا المعنى أيضاً[1] :

أحبِبْ بـه قنصـاً إلى متقـنّصٍ وفريصـةً[2] تُهـدى إلى مسـتفرصِ
من أين هذا الخشفُ جـاذبَ أحبُلـي فلأفحصَـنْ[3] عنـه وإن لم يُفحَـصِ
بل طيـفُ نازحـةٍ تصـرّم عهـدها إلا بقايـا وُدّهـا المسـتخلصِ

ويقول في هذا المعنى أيضاً ابن عبدربّه[4] :

سرى طيـفُ الحبيـبِ علـى البعـادِ ليصـلحَ بـين عَينـي والرُّقـادِ
فبـاتَ إلى الصَّـباحِ يـدي وسـادٌ لوجنتـهِ كمـا يـدُه وسـادي

أمّا ابن زيدون ، فيطلب من المحبوبة ألاّ تكثر التجنّي فتقطعُ وصل الطّيف ، لأنّ فيه ما يسدُّ حاجته لقربها ، وهي لا تستطيع منع طيفها من الزيارة ، وإنّما أراد الشاعر بهذا المبالغة في وصف منعها ، يقول[5] :

ينهى جفـاؤُكِ عـن زيـاريَ الكَـرى كـيلا يـزورَ خيالُـك المعتـادُ
لا تقطعـي صـلَةَ الخيـالِ تجنّيـاً إذ فيـه مـن عَـوزِ الوصـالِ سَـدادُ
مـا ضـرُّ أنّـكِ بالسّـلام ضـنينةٌ أيّـامَ طيفُـك بالعنـاقِ جـوادُ

ويردِّد الأعمى التطيلي هذا المعنى ، يقول[6] :

ومانِعَتي حتّـى علـى النّـأي وصْـلَها لعلّكِ قَد صـارمْتِ طيفَـكِ في وصـلِي

لقد وجد الشُّعراء في زيارة الطّيف لهم عَدْلاً عن وصالٍ لم يحظوا به ، ولذا قنعِوا به ، ومدحوا هذه الزِّيارة ((ومن القنوع الرِّضا بمزارِ الطيف ، وتسليم

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص١٧٩ .
(٢) الفرصة : النّهزة والنوبة ، اللّسان : مادة (فرص) .
(٣) الفحص : البسط والكشف ، اللّسان : مادة (فحص) .
(٤) ديوان ابن عبدربّه ، ص١٢٢ .
(٥) ديوان ابن زيدون ، ص٤٤٩ .
(٦) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٢٢ .

الخيال ، وهذا إنّما يحدث عن ذكرٍ لا يفارق ، وعهدٍ لا يحول ، وفكرٍ لا ينقضي ، فإذا نامت العيون وهدأت الحركاتُ سرى الطيف)) [1] ، يقول ابن حِمْديس ذاكراً زيارة الطيف له ، قانعاً بها ـ على أنّها عيادةٌ من طيفٍ لمريضٍ شَفَّهُ السُقم ـ [2] :

أبكاهُ شيبُ الرأسِ لمَّا ابتسم ... وعادَه في السُّقم طيفٌ ألم

من غادةٍ في وصل هجرانها ... يقنعُ منها بوصالِ الحُلُم

ولكنَّ بعض الشُّعراء لم يجدوا في زيارة الطيف عوضاً عن الحقيقة ، ولم يشفِ قلوبهم تصوُّر الخيال الذي يُقرِّب البعيد ، يقول ابن فُركون في هذا المعنى [3] .

وهيهات يُشفي القلب طيفُ خيالِها ... وقد علمتْ أنَّ الخيالَ كذوبُ

((وقد تعجّب الشُّعراء كثيراً من زيارة الطيفِ على بُعدِ الدّار وشحط المزار ، ووعورة الطرق واشتباه السُّبل واهتدائه إلى المضاجع من غير ما مرشدٍ يُرشده ، وعاضدٍ يعضُده ، وكيف قطع بعيد المسافة بلا حافرٍ ولا خفّ في أقرب مدةٍ وأسرع زمان)) [4].

يقول ابنُ هَانئ [5] :

أأسماءُ ما عهدي ولا عهدُ عاهدٍ ... بخدرك يسري في الفيافي المجاهل

فإنَّك ما تدرين أيَّ تنائفٍ ... قطعتُ بمكحولِ المدامعِ خاذلِ

تأوَّبَ مُرْخاةً عليه سُتُورهُ ... هدوءاً وقد نامت عيونُ العواذلِ

---

(١) طوق الحمامة ، ابن حزم ، ص١٠٦ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٤٧٣ .

(٣) ديوان ابن فُركون ، ص١٥٤ .

(٤) طيف الخيال ، الشريف المرتضي ، ص٢٧ .

(٥) ديوان ابن هانئ ، ص٣٠٢ .

فالشَّاعر يتعجَّب من قطع المجاهل ((لأنَّ الشعراء فرضت أنَّ زيارة الطيف حقيقةً ، وأنَّها في النوم كاليقظة ، فلابدَّ مع ذلك من العجب ممَّا تعجّبوا من طيّ البعيد من غير ركاب ، وجوب البلاد بلا صحاب))[1].

ولأنَّهم افترضوا أنَّ زيارة الطيف على الحقيقةِ ، فقد توهَّموا أيضاً أنه يُمنع كما تُمنع المحبوبة ، وأنَّه يُحمى بالسيوف القواطع مثلها ، يقول لسان الدين ابن الخطيب[2] :

قد كنتُ أقنعُ منك في سنةِ الكرى ... بالطيفِ فضلاً عن مَزَارٍ يَقربُ
ويئستُ إذا عاقتكِ أحراسُ العدى ... عن زوريّ وتألَّفوا وتألَّبوا
تاللهِ لو أرسلتِ طيفَكِ لانثنى ... خوفَ القواطعِ خائفاً يترقَّبُ

وقد أسهبَ الشُّعراء الأندلسيُّون في العذريَّة ، إذ جعلوا الطيف لا يهتدي للشَّاعر لخفائِهِ من شدَّةِ النُّحول والسُّقم ، وأكثروا من ترديد هذا المعنى في شعرهم ، يقول ابن اللبَّانَة الدَّاني[3] :

جسدي من الأعداءِ فيكِ لأنَّه ... لا يستبينُ لطرفِ طيفٍ يرمقُ
لم يدرِ طيفُكِ موضعي من مضجعي ... فعذرتُه في أنَّه لا يطرقُ

أمَّا ابن زُمْرُك ، فيذكر أنَّ هذا الطيف اهتدى إليه رغم نحوله ، وسقمه ، لتوقَّد نار الصبابة والوجد في قلبه ، وهي التي كانت كنارِ القرى ، التي تُرفع للضيف ، إذ يقول[4] :

---

(١) طيف الخيال ، الشريف المرتضي ، ص٢٧ .

(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١/١١٠ .

(٣) ديوان ابن اللَّبانة الداني ، ص٧١ .

(٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٥١٥ .

وقوله : (رفعت له نارَ الصبابة . . .) فيه أثرٌ من قول البحتري :

دمنٌ مواثلُ كالنجوم فإن عفت ... فبأيِّ نجمٍ في الصبابةِ تهتدي؟

ديوان البحتري ، تحقيق : دكتور محمد التونجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . الثانية ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م : ١/٤٠ .

عجبتُ له كيف اهتدى نحو مضجعي ولم يُبق مني السُّقم والشوقُ باقيا
رفعتُ له نارَ الصبابةِ فاهتدى وخاضَ لها عرضَ الدُّجنَّةِ ساريا

ـ ((جعل علّة إقباله استضاءتهُ بنارِ وجده))[1].

لقد أكثر الشُّعراء الأندلسيُّون من وصف ما يعانيه العاشقُ ويكابده ، وأشجانا صوت الرنين الدافئ لعاطفة الحبّ في هذا الشِّعر ، وقد يكون في بعض شعرهم تكلُّف أو مبالغة ، ولكنَّنا لا ننكرُ أنَّ أمر العشق لا يقتصرُ على جيلٍ دون جيل ، أو باديةٍ دون حاضرة ، ولو كان الأمرُ كذلك ، لما وجدنا في كتابٍ مثل طوق الحمامة ، قصصاً لعشَّاق أندلسيين جُنُّوا أو قضى عليهم الحبُّ[2] ، ولذا أكثر الشُّعراء في الأندلس من وصف هذا العشق وما يكابدونه من آلام ، وما يُعانونه ممَّن حولهم أيضاً ، ناصحين أو حاسدين ، فممَّا شكى منه الشُّعراء الأندلسيُّون ، الوشاةُ والعذَّال ، وقد جعلهما ابن حزمٍ من آفات الحبِّ[3] ، فإذا كان الشَّاعر لم يستطع أن يصمد بقوَّةٍ في وجه الشَّوق الجارف الذي يمتلئُ به قلبُه ، إلاَّ أنَّ ضعفه أمام هذا الشَّوق استحال قوَّةً في وجهِ العُذَّال والوشاة الَّذين يسعون بالوقيعة بينه ومن يحبّ ، فهو لم يستطع أن يُدافِعَ الشوق ، ولكنَّه استطاع أن يدفع هؤلاء العُذَّال والوشاة ، وأن يُصِمَّ سمعه عنهما ، ولذا أكثر الشُّعراء من وصف قوَّة تمسكِهم بمن يحبُّون على رُغم كثرة الواشين والعاذلين ، يؤكدّون بذلك صدق حبِّهم ، وقوّته في نفوسهم ، مستلهمين أشعار أسلافهم العذريِّين ، مثل قول جميل بثينة[4] :

فما زادني الواشون إلاَّ صبابةً ولا زادني النَّاهونَ إلاَّ تماديا

---

(١) طوق الحمامة ، ص١٠٦ .

(٢) ومنهم مروان بن يحيى بن جُدير الذي ذهب عقله لاعتلاقِهِ بجاريةِ لأخيه ، فمنعها منه ، وباعها لغيره ، وما كان في إخوته مثله ، ولا أتمَّ أدباً منه ، ويحيى بن أحمد بن عبّاس ابن عبدة ، جُنَّ لأنه وجَدَ بجاريته وجداً شديداً ، وكانت أمَّهُ أباعتها ، وذهبت إلى تزويجه بعض العامريات ؛ وغيرها كثير . انظر : طوق الحمامة ، ابن حزم ، ص١١٣ .

(٣) انظر : المصدر السَّابق ، ص٥١ - ٥٨ .

(٤) ديوان جميل بثينة ، ص٢١٧ .

وقد أخذ الأندلسيُّون هذا الجذر البدويّ العذريَ وصنعوا منه دوحةً متسعة الأفنان والصُّور ، يقول ابن حِمْدِيس[(١)] :

قال العـذولُ لقـد خضـعتَ لحبِّـه ... فأجبتُـه عـزُّ المحـبِّ خُضُـوعُهُ

أقْصِـر فمـا يجتـثُّ أصـلَ علاقـةٍ ... جُـذبت بـأطرافِ المـلامِ فروعُـهُ

ويقول ابن مَرْجِ الكُحْلِ[(٢)] :

إنّي لأعجـبُ مـن عتـابِ عـواذِلي ... جهـلاً عليـكَ ومـا يفيـدُ عتابـي

قلبي يـرى أن لا سُـلوَّ مـن الهـوى ... رضيَ الـذي يلقـى مـن الأوصـابِ

يـا عـاذِلي مـاذا تضـرُّك شـقوتي ... القلـبُ قلـبي ، والعـذابُ عذابـي

ويرى ابنُ زُمْرُك أنَّ قوّة الودِّ تكمنُ في صموده في وجه الحاسدين والواشين ، يقول[(٣)] :

هـل الـودُّ إلاّ مـا تحامـاهُ كاشِـحٌ ... وأخفقَ في مسـعاهُ مـن جـاءَ واشـيَا

وابنُ فُركون أيضاً يذكر أنَّه لا يسلو ، ولا يسمع للواشين واللُّوام ، فهو محافظ على العهد ، باقٍ على الحبّ[(٤)] :

ألم تعلمَا أنّي علـى القـرْبِ والنـوى ... أحـافظ ذاك العهـدَ رعيـاً لـه رعيـا

وأنِّـي لا أسـلو وإن بَعُـدَ المـدى ... وإن أكثـرَ الواشـونَ لا أقبـلُ الوشـيا

لـئن أرشـدَ اللُّـوامُ قلـبي لسـلوة ... فهيهـات إن الرشـدَ أحسـبُه غيًّـا

وهو في قصيدة أخرى ، يطلبُ ممَّن يعذلُه أن يكُفَّ عن العذل ، لأنَّه عاشقٌ تملَّكه الهوى ، فالعشق ((يستأثِرُ العاشق حتّى يجعله في مقام المستعبد)) [(٥)] يقول[(٦)] :

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٤ .

(٢) ديوان ابن مرج الكحل ، ص٢٩ .

(٣) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٥١٥ .

(٤) ديوان ابن فُركون ، ص٣١٩ .

(٥) ذمُّ الهوى ، ابن الجوزي ، ص٣٠٦ .

(٦) ديوان ابن فُركون ، ص٢٦٥ .

خليلـــيَّ كُفَّـا عـــن ملامـةِ هـائمٍ مســـامِعُهُ لم تُصْــغِ يومــاً إلى العـــذلِ
ألم تَعْلَمَـــا أنَّـــي تملَّكَـــني الهـــوى فواللهِ ما أمســـى بغـــيرِ الهـوى شُـغْلي

لقد أكثر الشّعراء الأندلسيُّون من وصفِ ألمِ الوجدِ وتباريحه ، ومعاناتهم لواعجه ، وجاء شعرهم حافلاً بمعاني العشق والهوى ، التي استرفدوها من عالم الباديةِ ، السَّاحر ، واستلهموها من رنين قصص عشَّاق الصحراء ، ومتيّمي الأعراب ، فوصفوا عذاباتِ الحبِّ ووصفوا أيضاً ما يعتري العاشق من علاماتِ هذا الحبّ ، من بكاء ، ودموع ، وسهر ، ومراقبةٍ للنجوم ، ومن نحولٍ وسقمٍ يعتري العاشق ، ومن وحشةٍ مع النَّاس حتّى يذهل عن نفسِه ، ومن خفوق القلب . . . إلى ما إلى ذلك من علاماتِ العشق والهوى التي حفل بها هذا الشِّعر البدوي السِّمات ، الأعرابُّي الطابع ، العفيفُ الخُلق ، يقولُ أبو بكر الطرطوشي ذاكراً سهره ، ومراقبته النجوم ، وكثرة النظر إلى السَّماء ، علّهُ يوافق نظر محبوبته إليها[1] :

أُقلّـــبُ طَرفِـــي في السَّـــماءِ تـــردُّداً لعلّي أرى الـــنجم الـــذي أنـــتَ تنظـــرُ

وهو يكرِّر بيت المجنون الذي يقول فيه[2] :

أقلّـــب طَرْفِـــي في السَّـــماء لعلَّـــهُ يوافـــقُ طـــرفي طرفَهـــا حـــينَ تنظـــرُ
وليسَ الذي يجري مـــن العـــين ماؤُهـــا ولكنَّهـــا نفـــسٌ تـــذوبُ فتقطـــرُ

والطرطوشي يضيف إلى البيت السَّابق أبياتاً تحملُ كثيراً من المعاني العذريَّة الرَّقيقة ، استقبال الرُّكبان وسؤالهم عمَّن يحبّ ، تنسُّم الأرواح عند هبوبها ، المسير إلى غير هدى ، ممَّا يُذكِّرنا بأشعار المجنون في ليلاه ، وفيها يقول[3] :

وأستعرضُ الرُّكبانَ مـــن كـــلِّ وجهـــةٍ لعلّي بمـــن قـــد شَـــمَّ عرفَـــك أنظـــرُ

---

(١) نفح الطيب ، المقرّي ، ٢/٨٥ .
(٢) ديوان مجنون ليلى ، ص١٤٧ .
(٣) نفح الطيب ، المقري ، ٢/٨٥ .

وأستقبل الأرواحَ عند هبُوبها لعلَّ نسيمَ الريحِ عنك يخبِّرُ
وأمشي ومالي في الطريق مآربٌ عسى نغمةٌ باسم الحبيبِ ستُذكَرُ
وألمحُ من ألقاهُ من غير حاجةٍ عسى لمحةٌ من نور وجهك تُسفِرُ

ويشبه قوله (أستقبل الأوراح . . .) و (أمشي . . .) قول المجنون[1] :

وأخرجُ من بين البيوت لعلَّني أُحدِّث عنكِ النفس بالليلِ خاليا

وتتردد هذه المعاني البدويَّة ، في قول أبي بكر بن هُذيل[2] :

عَرَفْتُ بِعَرفِ الرّيحِ أين تيمّموا وأين استقلَّ الظاعنون وخيَّموا
خليليَّ رُدّاني إلى جانبِ الحمى فلستُ إلى غير الحمى أتيمَّمُ
أبيتُ سميرَ الفرقدين كأنّما وسادي قتادٌ أو ضجيعي أرقمُ

وصورة السَّهر وتقلُّب العاشق في الفراش ، وكأنَّ به أراقم ، تردُ أيضاً عند حازم القرطاجنّي في وصف سهره لشُغل قلبه بالحبّ إذ يقول[3] :

وكيفَ وما سالٍ بحالٍ كواجدٍ وهل يستوي خلو الفؤادِ وهائمهُ
يبيتُ إذا ما البرقُ أبرقَ جفنُه بليلٍ سليمٍ ساورتهُ أراقمه

وهي صورةٌ قديمة في الشِّعر الجاهلي وردت عند النابغة الذي يقول[4]:

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقشِ في أنيابها السمُّ ناقعُ

وهو قلقٌ أورثه وعيدُ النعمان له[5] ، أمَّا عند الشاعر الأندلسيّ فقد أورثهُ عشق مبرِّح .

---

(١) ديوان مجنون ليلى ، ص٢٥٣ .
(٢) نفح الطيب ، المقري ، ١٥٤/٣ .
(٣) ديوان حازم القرطاجني ، ص١٠٩ .
(٤) ديوان النابغة الذبياني ، ص٧٩ .
(٥) إذ يقول :
وعيدُ أبي قابوسَ في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجعُ
فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة من الرُّقش في أنيابها السمُّ فاقع
ديوان النابغة الذبياني ، ص٧٨ .

ويُكثر الشُّعراء من وصف سهرهم ، ومكابدتهم حرارة الشوق والوجد ، ممّا يدفع العاشق لأن يجسِّد أُمنياتِه في الخيال ، فيتوهَّم المحبوبة قُربَه ، يقول عمرو بن عثمان[1] :

إذا هجــعَ النُّــوامُ بـــتُّ مســهَّداً ... وكفِّي على خدِّي ودمعي علــى نحــري

ويوهمنيــك الشــوقُ في ســاحةِ المــنى ... فأنــتِ تجــاهي في المناجــاةِ والــذِّكرِ

والبيتُ الثّاني فيه شَوبٌ من قول المجنون[2] :

أراني إذا صــلّيتُ يمَّمــتُ نحوهــا ... بــوجهي وإن كــان المصــلَّى ورائيــا

ويطولُ ليل العاشق ، ويُكثر الشُّعراء الأندلسيُّون من وصف طوله ، حتّى شبهه يوسُف بنُ هارون بمعنى الهجر الذي لا ينقضي ، وشبَّه الصَّباح بالغائب الذي لا يرجع ، وبوجه محبوبته الذي يشتاق إليه يقول[3] :

فطــالَ علــيَّ الليــلُ حتّــى كأنَّــه ... قد امتثلَ الهجــرَ الــذي لــيس يُقلــعُ

وطــال انتظــارِي للصَّــباح كــأنّني ... أُراقــبُ منــه غائبــاً لــيسَ يرجِــعُ

فيا شَعْر من أهــواه هــل لــك آخــرٌ ... ويا وجهَ من أهــواهُ هــل لــك مطلــعُ

((قال الرّبعي : وسمعتُ أعرابيَّةً تقول : مسكين العاشق ، كلُّ شيء عدوُّه ، هبوب الرِّياح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرِّقُه ، ورسوم الديار تحرقُه ، والعذلُ يؤْلمه ، والتذكُّر يُسقمه ، والبُعد يُنحله ، والقربُ يهيّجه ، والليلُ يضاعفُ بلاه ، والرُّقاد يهرب منه ، ولقد تداويتُ بالقرب والبعد فلم ينجح فيه دواء))[4].

وقد وصف الشُّعراء كلُّ هذا وغيره ممَّا يعتري العاشق فمن ذلك شدَّةُ خفقان القلب ، وسرعة نبضاتِه ، وهيِ من دلائل العشق التي تعتري من يحبُّ ، فهو كما ذكر ابن الجوزي ((يورثُ الهمَّ الدَّائم ، والفكر اللازم والوسواس

---

(١) الحدائق والجنان ، الجيَّاني ، ص١١٧ .

(٢) ديوان مجنون ليلى ، ص٢٥٣ .

(٣) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتاني ، ص١٥٨ .

(٤) ذم الهوى ، ابن الجوزي ، ص٣١٥ .

والأرق ، وقلّة المطعم ، وكثرة السهر ، ثمَّ يتسلّط على الجوارح ، فتنشأ الصفرةُ في البدن ، والرّعدة في الأطراف ، واللجلجةُ في اللّسان ، والنحول في الجسد ، فالرأيُ عاطل ، والقلبُ غائب عن تدبير مصلحته ، والدموع هواطل ، والحسرات تتتابع ، والزفرات تتوالى ، والأنفاسُ لا تمتد ، والأحشاء تضطرم))[1] يقول يوسُف بن هارون مشبّهاً خفق قلبه بأوراق الشَّجر على غصن متحرّك[2] :

تولّتْ بهم يوم الفراق مطيُّهم ... بأعجل من خفقِ الفؤادِ وأسرعِ

كأنَّ الحشَا والقلبَ عند تذكُّري ... لهم ورقاتٌ في قضيبٍ مزعزعِ

وأكثروا من تشبيه القلب في خفقانِهِ بجناحي طائر مستلهمين في ذلك قولُ ((أحد العشَّاق الذين قتلهم العشق))[3] وهو عروة بن حزام صاحب عفراء[4]:

كأنَّ قطاةً عُلّقت بجناحها ... على كبدي من شدَّةِ الخفقانِ

إذ يقول الهذليّ الأندلسي[5] :

ويوماً بدارات العقيق لو أنَّه ... أعيدَ لردِّ الشمسِ عن كلّ مطلعِ

لقينا به فتك النَّوى وقلوبُنا ... قوادمُ طيرٍ في الحبائلِ وُقَّعِ

ويقول أيضاً عليُّ بن الحسين[6] :

كأنَّ فؤادي طائرٌ بين أضلعي ... يريدُ فراراً والجوانحُ مطبقُ

كأنَّ عذابي حولَه شَركٌ له ... تنشَّبُ فيه فهو للخوفِ يخفقُ

وكذلك ابن خفاجة الذي يقول[7] :

---

(١) ذم الهوى ، ابن الجوزي ، ص٣١٤ .

(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتاني ، ص١٥٥ .

(٣) الشِّعر والشُّعراء ، ابن قتيبة ، ص٣٩٤ .

(٤) المصدر السَّابق ، ص٣٩٨ .

(٥،٦) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتاني ، ص١٥٥ .

(٧) ديوان ابن خفاجة ، ص٢١٢ .

فـإذا تطلَّـعَ مـن سمائـكَ بـارقٌ أو طـافَ زورٌ مـن خيالـكِ يطـرقُ
خفقـت لـذكركِ أضـلعي فكـأنَّ لي في كـلِّ جانحـةٍ جناحـاً يخفـقُ

ووصف الشُّعراء الأندلسيُّون أيضاً سقم الجسم ونحولَه ، ونحولُ الجسم من دلائل الكمد كما ذكر ابن داود في الزهرة[1] ، وهو من عوارض العشق التي أكثر الشُّعراء من ذكرها ((ولابدّ لكلّ محبٍّ صادق المودَّة ، ممنوع الوصلِ إمَّا ببين ، وإمَّا بهجرٍ ، وإمَّا بكتمان واقع لمعنى من أن يؤول إلى حدّ السقام ، والضَّنى والنحول ، وربَّما أضجعه ذلك ، وهذا الأمر كثيرٌ جداً ، موجودٌ أبداً ، والأعراض الواقعةُ من المحبَّة غير العلل الواقعة من هجمات العلل))[2].

يقول ابن اللبَّانة الداني مشبّهاً نفسه في النّحول بالرَّمق الأخير والنَّفَس الذاهب[3] :

هـلاَّ ثنـاكَ علـيَّ قلـبٌ مشـفقُ فتـرى فراشـاً في فـراشٍ يحـرقُ
قد صرتُ كـالرَّمقِ الـذي لا يُرتجـى ورجعـتُ كـالنَّفَسِ الـذي لا يُلحـقُ

ويقول ابن زيدون في هذا المعنى طالباً من المحبوبةِ أن تعوده[4] :

هلاّ حملتِ السُّـقم عـن جسـمٍ لـه في كلِّـةٍ زُرَّتْ عليـكِ فـؤادُ
أو عُدْتِ من سِقمِ الهـوى إنَّ الهـوى مـمَّـا يطيـلُ ضـنى الفـتى فيُعـادُ

أمَّا ابن خفاجة فيذكر هذا النحول ضمن علاماتِ ودلائل العشق الأخرى ، في قصيدة كثيرة المعاني العذريَّة يقول[5] :

وإنّـي لهتـزٌّ لـذكراكِ لوعـةً كما اهتزَّ في مسـرى النسـيم قضـيبُ
نحيلٌ تـهـادانـي الريـاحُ فليتـها شمـالٌ تـهـادى بيننـا وجنـوبُ

---

(١) الزهرة ، ابن داود الأصفهاني ، ٢/٤٠٠ .
(٢) طوق الحمامة ، ابن حزم ، ص١١١ .
(٣) ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني ، ص٧٠ .
(٤) ديوان ابن زيدون ، ص٤٥٠ .
(٥) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٩٩ .

تـهـبُّ بنـا طَـوْراً جنوبـاً فنلتقـي وتجـري شمـالاً تـارةً فنئـوبُ

وابن خفاجة جعل لذكر من يحب (لوعة) تجعله يهتزُّ كاهتزاز القضيب في مسرى النسيم ، وهو يشبه قول أبي صخر الهذلي[1] :

وإنّـي لتعـروني لـذكراكِ رعشـةٌ كما انـتفضَ العصـفورُ بلّلَـهُ القطـرُ

وقد جعل الهذليُّ لذكر من يحبُّ (رعشة) تشبه انتفاض العصفور حين يبلله القطر ، أمَّا عروة بن حزام فقد قال[2] :

وإنّـي لتعـروني لـذكراكِ روعـةٌ لهـا بـين جلـدي والعظـامِ دبيـبُ

فجعل لذكر من يحبّ (روعة) وجعل لها دبيباً يسري بين الجلد والعظم .

وتأتي علاماتُ هذا العشق عند يوسُف الثَّالث ، يقول[3] :

وقد كنتُ أُخفي ما أجنُّ مـن الهـوى فنمَّـت بسـرِّي صـفرةٌ ونحـولُ

وأدمـعُ عـينٍ يسـتبقنَ بـوجنتي كما اسـتبقتْ يـومَ الرِّهـانِ خيـولُ

ولم يمنعُ المُلك يوسُف الثَّالث أن يكون عاشقاً في شعره ، وبخاصَّة أنَّه عانى مرارة السجن في أيَّام شبابه سنين طوالاً ، وعانى أيضاً مرارة فقد الزوج والأبناء والأخوة[4] ، ((ممَّا جعله ينظر إلى الحياة والنَّاس نظرةً ملؤها الحساسيَّة))[5].

---

(١) الزهرة ، ابن داود الأصفهاني ، ٣٧٣/١ .
وقد نُسب أيضاً إلى المجنون إذ يقول :
وإني لتعـرونـي لـذكراكِ نفضـةٌ كما انتفض العصـفور بلّلـهُ القطـرُ
ديوان مجنون ليلى ، ص١٤٧ .

(٢) الشِّعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص٣٩٥ .

(٣) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص١٩٣ .

(٤) انظر : حياة الشِّعر في نهاية الأندلس ، دكتورة حسناء بوزويتة الطرابلسي ، دار محمد علي الحامي ، مركز النشر الجامعي ، تونس ، ط . الأولى ، ٢٠٠١م ، ص١٩٧ .
وعن يوسُف الثَّالث انظر : مقدمة ديوان ابن فُركون ، محمد بن شريفة ، ص١٩-٩٦.

(٥) المرجع السَّابق ، ص١٩٧ .

وقد انعكست هذه الحساسيَّة على شعره الذي تناول فيه المرأة ((فكان الغزل عنده أبعدُ ما يكون عن اللَّهو والاستمتاع ، وإشباع الغرائز الجنسيَّة ، بل هو مترجمٌ عن عاطفة سامية نبيلة ، تنبُع من أعماق الشَّاعر وأنبل ما فيه من الأحاسيس وإنَّه لبوسعنا أن نقول إن الحبَّ عنده امتدادٌ لتجارب العذاب التي خاضها في حياته)) [1] ، ولذا فإنَّنا لا نجدُ هذه المعاني العذريَّة قد اقتصرت على شاعرٍ دون غيره ، أو عند طبقةٍ دون أخرى ، بل لقد تناولها معظم شعراء الأندلس في نسيبهم الذي تبدُّوا فيه ، لأنَّها طريقةٌ في التعبير عمَّا في نفوسهم تجاه محبوبةٍ عفَّ عشقُها في قلوبهم عن ملامستها ، فعفَّ القول فيه عن ماديَّة الغزل ، وحسِّيَّته ، يقول ابن خفاجة ذاكراً انهمال دمعه شوقاً ووجداً [2] :

أجبتُ وقد نادَى الغرامُ فأسمعا ... عشيَّةَ غنَّاني الحمامُ فرجَّعا

فقلتُ ولي دمعٌ ترقرقَ فانهمى ... يسيل وصبرٌ قد وهى فتضعضعَا

أمَّا لسانُ الدين بن الخطيب فيصفُ كثرة بكائِه ويبالغ في هذا الوصف ، حتّى جعله أقوى وأعم من الغيثِ الهامي [3] :

خليليَّ من سلمانَ بالله ساعدَا ... فما الخلُّ إلاّ مسعدٌ ومُقيل

ولا تُجريَا ذكر الفراقِ فإنَّه ... حديثٌ على سمعِ الغداة ثقيلُ

ولا تَسْألا أن يهميَ الغيثُ بالحمى ... فمن مقلتي غيثٌ أجشُّ همولُ

ولهُ أيضاً من قصيدةٍ أُخرى [4] :

وما ليَ لا أبكي بعينٍ قريحةٍ ... على فرقةِ الأحبابِ تهمي وتهمعُ

وكذلك ابن فُركون الذي لا يجدُ للصَّبرِ مكاناً عنده ، فيكثر من الدَّمع حتّى النحيب ، يقول [5] :

---

(١)انظر : حياة الشِّعر في نهاية الأندلس ، دكتورة حسناء بوزويتة الطرابلسي ، ص١٩٧.

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص١٢٨ .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٤٨٠ .

(٤) المصدر السَّابق ، ٢/٦٦٥

(٥) ديوان ابن فُركون . ص١٥٤ .

أبانَ غرامي يـوم بـانَ عـن الحِمـى وقد بانَ مـن فـودِ الظـلامِ مشـيبُ
فاذهـب صـبري والفـؤادَ وسَـلوتي فلـم يَبـقَ إلاّ مـدمعٌ ونحيـبُ
ألا في سـبيلِ الحـبِّ قلـبٌ مقلَّـبٌ مشـوقٌ لتـذكارِ العهـودِ طـروبُ

إنَّه العشقُ الـذي يجعلُ المحبـوب متوحِّشـاً مـن النَّـاس وهـو معـهم ، ولا يأنَـسُ إلاّ بذكر من يحب ، إذ يقول إدريس بن الهيثم[1] :

ويوحِشُـني قـربُ الجميـع وإنَّـني لتـأنسُ نفسـي إن ذكـرتكمُ فـردَا

ولأنَّ العاشق مسكيـن كـما ذكـرت الأعرابيَّة[2] ، أكثَر مـن التوسُّل لبيـان ما يُحسُّه بكلِّ ما حوله ، لأنَّ كلَّ ما حوله يهيجُ الذِّكرى ، ويؤجِّج الحنين ، ولذا وجدنا أنَّه ((قد يدخل في النسيب التشوُّق والتذكُّر لمعاهد الأحبَّة بالرِّياح الهابَّة والبروق اللاّمعة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة ، وآثار الديَار العافية وأشخاص الأطلال الدَّاثرة))[3].

وهو ما سنعرض له أكثر في مبحث المكان في النسيب ، فقد وصف الشُّعراءُ نسائم الرِّيح الهابَّة ، وذكروا ما تهيِّجُه من لواعج الشَّوقِ لمن أحبُّوا ، يقول أحمد بن فرج الجيَّاني[4] :

هي الرِّيحُ يسرِي الشوقُ فيَّ إذا سَـرَت ويجري لهـا دمعـي ببحـرٍ إذا جـرت
كـأنَّ الصَّـبا مشـتقَّةٌ مـن صـبابتي فأهتاجُ ما هاجَـت وأهـدا إذا هـدت

ويقول في ذلك أيضاً إدريس بن الهيثم[5] :

إذا خَلَصَـتْ ريـحٌ إليَّ وقـد أتـت على أرضكمْ ألقَتْ على كبـدِي بَـرْدا

---

(١) الحدائق والجنان ، الجيَّاني ، ص٨٥ .
(٢) انظر : ذم الهوى ، ابن الجوزي ، ص٣١٥ ، وقد ذكرنا قولها سابقاً ، ص١٤٨ .
(٣) نقد الشِّعر ، قدامة بن جعفر ، ص١٣٤ .
(٤) الحدائق والجنان ، الجيّاني ، ص٢٢ .
(٥) المصدر السَّابق ، ص٨٥ .

وذكَر الشُّعراء الأندلسيُّون البرقَ ، إذ يقول ابن داود إن ((في لوامع البروق أنسٌ للمستوحش المشوق))[1] والبرق ((من رموز الشَّوقِ الكبرى))[2].

يقول يوسُف الثَّالث[3] :

إذا خفق القلبُ المروَّعُ بارقاً ... أطلَّتْ سحابٌ للدموعِ همولُ
وإن أومضَ البرقُ الشَّماليُّ وهنةً ... بدت منه أشباهٌ له وشُكولُ
ولو أنَّ ما بي بالجبالِ لزلزلت ... أهاضبُ رَضوى غير أني حمولُ

وفي معنى الشوق الذي يهيجُه البرق ، يقول أيضاً ابن حِمْدِيس[4] :

وربَّما هاجَ اشتياقَ الفتى ... تألُّقُ البرقِ وسجعُ الحمام
أو نفحةٌ تَعبقُ من روضةٍ ... تُحيي من الصبِّ رميمَ العظام

وقد ذكَرَ الشُّعراءُ النَّارَ في هذا النسيب لأنَّها ((ممَّا يلحق بالبرقِ في بابِ الشَّوق))[5] ، قال ابنُ هُذيل[6] :

وقفتُ على علياءَ والجزعُ بيننا ... لأنظرَ من نارٍ على البُعد تُوقَدُ
تقومُ بطولِ الرُّمح إن هبَّت الصَّبا ... وعند سكونِ الليل تهدَا فتقعُدُ

وذكروا النَّار لاتّصالها بمعنى تلّهب الشَّوق في قلب العاشق إذ يقول أحمد ابن فرج الجيَّاني[7] :

ولي بالجزعِ ليلٌ قد تمطَّى ... فما ساعاتُه إلاَّ ليالي

---

(١) الزَّهرة ، ابن داود الأصفهاني ، ص٣١٢ .
(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيَّب ، ١٤٤/٣ .
(٣) ديوان يوسُف الثَّالث ، ص١٩٣ .
(٤) ديوان ابن حمديس ، ص٤٥٩ .
(٥) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ١٥١/٣ .
(٦) التشبيهات من أشعارِ أهل الأندلس ، ابن الكتّاني ، ص١٦٨ .
(٧) المصدر السَّابق ، ص١٦٩ .

لنـــارٍ أومضـــت فكـــأنَّ قلـــبي   بمثـــل لهيبـــها للشَّـــوق صـــالي
بعيـــدٌ مُنتواهـــا وهـــي تُـــذكي   علـــى كبـــدي بقـــربٍ واتّصـــال

وممَّا استعان به الشُّعراءُ أيضاً أو توسَّلُوا به في شعرهم العفيف ، أسماءَ معشوقاتِ الباديةِ ، وملهماتِ الصَّحراء ، وقد ذُكرت في الشعر لرمزيتها العذريَّة ، مثل اسم (سلمى) و (سليمى) .

يقول ابن الحدَّاد[1] :

إذا شـــئتَ تنكـــيلاً وتنكيـــد عيشـــةٍ   فحسبُك أن تـــهـــوى سليمى ومهـــددا

ومنها (لبنى) يقول ابن الأبَّار[2] :

وهل عنـــد لـــبنى لـــو تســـنّى لبائـــةٌ   أزجِّـــي إلى ماذيِّهَـــا كـــلَّ علقـــم

وغيرها كثير .

وسنعرض بإذن الله بتوسُّع ، لرمز الأسماء ، والبرق ، والنَّار في الدراسة الفنيَّة إن شاء الله .

وبعدُ . . . فقد ارتبط الشعراءُ الأندلسيُّون بموروثهم التاريخي ، والثقافي ، والعاطفي ، وتداخل عالم البادية السَّاحر ، ومعاني الهوى العذريّ بكلّ ما فيه مع النَّفس الأندلسيَّةِ الشاعرة ، فتعانقا ، وتلاحما ، وارتبطا في محراب هذا العشق الروحي ، ارتباط رموز هذا العشق ، فكما لم يرد اسم جميل ، أو كثيرٌ ، أو قيس ، وحده ، كذلك لم ينفرد بالشِّعر العذريّ أبناءُ البادية وحدهم ، بل امتدَّ ليشمل كلَّ شعرٍ تغنَّى فيه أصحابه بصدق المشاعر وسموِّها .

لذا ؛ فقد اختلج قلبُ الشَّاعر الأندلسيِّ بمعاني العشق والهوى ووصف آلام الوجد وتباريحه ، وارتسمت على ملامحه صفات العاشق الناحل الباكي ،

---

(١) ديوان ابن الحدَّاد ، ص١٩١ .
(٢) ديوان ابن الأبَّار ، ص٣٠٢ .

وسرت في حنايا أضلعه راتحة الخزامى ، ونسائم الصَّبا ، وأوقد لمع البرقِ نارَ الشَّوقِ في صدره وكأنَّ رحلة الظعائن والحمول التي كانت تقطع الصَّحـراء اجتازت بالمعاني العذريَّة حدود الحجاز ، ونجد ، لتدخل قلوب العشَّاق في الأندلس ، فيتغنّى بها الشعراءُ منهم .

* * *